

طريقُ الخروجِ

رواية

جمال الجزيري

أبواب

"من المثير للاهتمام، أن مثل هذه القوة المحجوبة قد يصابها أيضا حكي القصص، حيث إن القصص يتم حكيها غالبا في الليل، الوقت السرّي المتّسم بالحذر. ولدى شعوب ماندنغو فئة من الكلمات ذات قوة خاصة، كيما kuma، ويتم النطق بها فقط في الليل خلال حكي الخرافات، والأساطير والحكايات. وهي تجسيد للمعارف المموهة، تتيح للأفراد في الجماعات الكشف عن مشاعرهم استنادا إلى الموارد، دون المخاطرة بتبديد الروح الحيوية".

روجر د. إبراهيمز، حكايات شعبية أفريقية (الجزء الأول)، ترجمة عزت عامر، ص

73-72

"يا مُرَبِّي الماشية، أعيّدوا إليّ معزاتي،

المعزاة التي أعطاه لي رعاة الماعز،

الرعاة الذين دفعوا لي مقابل عجيتي،

العجينة التي أعطاني إيّاها الساحقاتُ بالهّاون،

الساحقات بالهّاون دفعن مقابل عسلي،

العسل الذي أعطاه لي جامعو العسل،

جامعو العسل الذين دفعوا لي لقاء وعائي،

الوعاء الذي أعطينه لي حفاراتُ الطين،

حفّارات الطين اللائي دفعن مقابل معزقتي،

المعزقة التي أعطاها الطّبي لي،

الطّبي الذي دفع غرامة مقابل بسلّتي.

أمسكوا به وضربوه، وعندما كان فاقد الوعي تماما، أخرجوه من القرية، بعد أن ظنوا

أنه ميت.

حكاية "معزقة الأرنب البري": روجر د. إبراهيم، حكايات شعبية أفريقية (الجزء الأول)، ترجمة عزت عامر، ص 157

"دلَّته على السَّكَّة وقالت له: تلتقي السراي مربوط قدَّامها جَدِّي وكلب وقدام الجدي لحمه وقدام الكلب برسيم تشيل اللحمه من قدام الجدي ترميها قدام الكلب وتشيل البرسيم ترميه قدام الجدي يفتح لك الباب تخش تقطع الوردة تقطعها وتنك طالع ما تتلفتش وراك أحسن إن اتلفت تتسخط تبقى حجر زي المساخيط هناك"

حكايات شعبية مصرية، جمع وتدوين: فيلهلم شبيتا، تحقيق ودراسة: مصطفى ماهر: "حكاية وردة عرب زنديق" ص 157

فلان الفلاني اللي كان يومها جنبي
ساعة لما بدأوا في ضرب الرصاص،
فلان الفلاني اللي معرفش اسمه
فدايمًا بقول: يا بن عمى وخلص،
فلان اللي سابلي بقية سندوتشه
ليلة لما شافني بغني وجعان،
فلان اللي مش فاكرة غير شكل وشه
فلان اللي عداكي جوه الميدان،
فلان اللي فتشني بالابتسامة
فلان اللي قال هو فعلا حيمشي،
فلان اللي قال لي طريق السلامة
ساعة لما قولنا زهقنا وحنمشي،

فلان اللي مطلعش جوّه البرامج
وكان بس صوته في قلب الهتاف،
فلان اللي روّح أكل واستحمّى
فلان اللي ضايع في وسط الآلاف،
فلان اللي غرّقلّى خلّ الكوفيّة
وشالني ساعة لما جت طلقه فيّا،
فلان اللي ماااااااااااات يومها تلزمله دية
من ابن الفلاني اللي كلّ لحمه حاف.

كلمات: مصطفى إبراهيم

غناء: باسم وديع

مقدمة

سجّل الراوي الذي اسمه راوي في الغالب مقاطع هذه الرواية على جهاز التسجيل بهاتفه في الفترة من 27 مارس 2011 حتى 27 ديسمبر 2014. واستلمتُ كارت الذاكرة في 27 مارس عام 2015 من ذلك الذي لم أعد أذكر اسمه ولا أعرف إن كان اسمه حقيقياً أم لا، فلقد اتفق معي على كل التفاصيل – التي كانت مجحفة في حق راوي، وفي حقّي أنا شخصياً بصفتي مُخرِجاً سردياً له مكانته ويسعى لتأمين احتياجات أسرته، ولكنني لم أكتشف هذا الإجحاف إلا بعد أن كان الذي كلّفني بالتفريغ قد اختفى في نهاية عام 2015 تقريباً. ورحم الله راوي إذا كان قد ذهب إلى العالم الآخر، ورحمه الله أيضاً ورزقه الصحة والعافية إذا ما كان ما زال في براح الحياة، فأنا بصراحة لا أفضل استعمال كلمة "القيد" مع الحياة، بالرغم من الاستفحال الذي يتفشى أثناء كتابة هذه السطور وبالرغم من أنني وعيالي كدنا نموت جوعاً بالمعنى الحرفي للتعبير. وما شجعتني على معاودة النظر في سطور هذه الرواية ومراجعتها تمهيداً للتصرّف فيها بالنشر هو أن أحداثها وذكرياتي مع تفريغ ملفاتها صارت الآن حلمًا، بعد أن كنت أدرك ساعتها أنها كابوس، وسبحان مبدّل الأحوال.

قمتُ بتفريغ الملفات من على كارت الذاكرة تفريغاً أولياً في الشهور الأخيرة من عام 2015، وقسمتُ الملفات إلى عدة روايات – كما أشرتُ في رواية أخرى – ومنها هذه الرواية التي لم أقم بإضافة أي شيء إلى محتواها الأصلي إلا بعض الفقرات الانتقالية التي وضعتها بين بعض المقاطع حتى تخفّ كثافة الرواية وتستطيع يا قارئ وقارئه العزيز أن تقرأها بسلاسة وفهم، بعيداً عن الغموض وعن القفزات المفاجئة في الأحداث.

كما قمتُ بدمج بعض المقاطع الصوتية ببعضها البعض حتى تُشكّل مع بعضها فصلاً من فصول هذه الرواية، دون أن أصادرَ على حقك يا قارئ الكريم في أن تربط هذا الجزء من هذا الفصل أو ذاك بفصل آخر لا يوجد فيه، أو في أن تعيد ترتيب الأحداث بالطريقة التي تراها مناسبة فحبكة جديدة غير الحبكة التي استقرّ رأيي على تقديمها لك هنا. كما أنني قمتُ بتخفيف اللغة، مثل تخفيف الشاي الثقيل من خلال صبّ قدر من الماء الساخن عليه، كي لا يسبب عسراً أو تلفاً بالمعدة. وأنا يا قارئ لا أريد لك أن تتجرّع عشرات الأدوية مرة

واحدة، ولذلك أدخلتُ بعض الجمل وسط الجمل لتوضيح شفرة رمز كانت غائبة أو إضافة جانب لصورة ناقصة أو الإفصاح عن صورة ثقافية أو لغوية غامضة، وما إلى ذلك من آليات تعرفها يا قارئ جيداً عند إعادة صياغة نص ما أو تنقيحه أو تصويبه، الخ.

لم أشأ أن أعرب اسم بطل الرواية "راوي"، فلم أرفعه أو أنصبه أو أجرّه في هذه المقدمة أو في متن الرواية، كي لا يحدث الخلط بين كونه اسم "علم" وكون اسمه وظيفة قصصية، ولأسباب أخرى خاصة بمعنى الرفع والنصب والجر، وهو في حلٍّ منها الآن.

بالنسبة للفصل الأول، كان أصعبَ فصول الرواية إخراجاً، فلقد قام راوي بتسجيله على فترات متباعدة ولم يسجله متواصلاً أو في مقاطع متتالية كما في الفصول الأخرى. ويبدو أن راوي أدرك أن الصور الضبابية التي حكاها في المقطع الأول من مقاطع الرواية على الهاتف ستجعل القارئ مرتبكاً ومشوشاً، فلقد كانت ذاكرة راوي ذاته مرتبكة ومشوشة وضبابية وحائرة، تصارع في سبيل استعادة علاقتها بحياة صاحبها وربط أجزاء هذه الحياة ببعضها البعض. ولذلك سجّل راوي المقطع الأول بعد أن عثر على هاتفه وبدأ من نقطة القفز من فوق السور. ولكنه عاد في مقاطع لاحقة وسرد تفاصيل أكثر، وكأنه كان في البداية يسجل الخطوط العامة كي لا تتوه من ذاكرته. وعندما صَفَتَ رأسه ووجد الوقتَ الكافي لتسجيل التفاصيل الأخرى، سجّل المقاطع اللاحقة. واستعمل فيها الزمن الماضي مع أنه يستعمل الزمن المضارع في الكثير أحداث الرواية، وكأنه يقول لنا إن أحداث الفصل الأول صارت من الماضي وعليه أن يتجاوزها بكل تفاصيلها حتى يُكمل طريق الخروج.

وهناك نقطة أخرى خاصة بجميع الفصول تقريباً، وهي أن راوي قد يجعل المقطع الصوتي الواحد مكوّناً من عدة مقاطع فرعية، فيقوم بتسجيل جزء في الملف، ثم يستخدم كلمة "قطع" أو "نقل" أو "cut"، ثم يبدأ في التسجيل من زاوية مختلفة داخل المقطع الصوتي ذاته، وكأنه مُخرج سينمائي يقوم بتقطيع المشاهد بطريقة معينة تجمعها وتفصل بينها في آن، ولذلك وضعتُ ثلاث نجوم (***) بين هذه المقاطع التي تنتمي للفصل الواحد عند تفرغ الملفات الصوتية. ومن الواضح أن راوي يستخدم الأزمنة بطريقة خاصة أيضاً، فنجد داخل المقطع الصوتي الواحد يستخدم المضارع والماضي في الكثير من الأحيان.

تَبَقَّتْ نقطة أخيرة لا بدَّ أن أُشير إليها قبل أن أتركك مع الرواية، وهي عنوان الرواية ذاته. فمع أن راوي شخصية حقيقية، ومن الواضح أنه كان مُحْتَجِّزًا أو مُقْعَدًا بالفعل في جهينة، كما يتضح من كلام زوجته في بعض المقاطع الصوتية، كان يدرك أن ما يرويهِ قد يتحوَّل إلى رواية؛ فمن الواضح من كلام أحد إخوته أنه يكتب القصص، كما أن راوي ذاته وضع ملفات هذه الرواية في مجلَّد فرعي داخل المجلد الكبير، وأعطاه "رواية" عنوانًا. واخترتُ العنوان الذي وضعته لهذه الرواية من بين خيارات كثيرة كانت متاحة في الملفات الصوتية ذاتها، فلقد كان راوي في نهاية كل مقطع صوتي يقترح عنوانًا يليق بالمقطع، ويقول قبل العنوان المقترح: "يمكنك أن تسميه..." ويذكر العنوان المقترح بعد هذه الصيغة المتكررة في كل المقاطع الخاصة به، وليست المسجلة بصوت زوجته التي كانت تأتي كل شهر تقريبًا من شَقَّتِهِم في الجزيرة إلى جهينة. واخترتُ عنوان "طريق الخروج" باعتباره عنوانًا أوسع أو أوضح من العناوين الأخرى. وتقتضي الأمانة أن أذكر لكم بعض العناوين التي انتقيتها من نهاية المقاطع الصوتية، ومنها:

- طيور تكتُم أنفاسها (وكنْتُ قد اخترته للمسودة الأولى للرواية بعد تفريغها من الملفات الصوتية. ولم أشكِّل كلماته ولم أظْهر حركاته الإعرابية، للدلالة على كتم الطيور لأنفاسها، كما يحدث بالفعل في الرواية، استعدادًا للدفاع عن راوي ومساعدته أو ذهولًا مما يحدث معه، وللدلالة أيضًا على أن هناك ما ومَن يكتُم أنفاس هذه الطيور بكل ما تحمله من رموز ومغزى)

- ذاكرة أرض (وكنْتُ قد اخترته بعد مراجعة المسودة الأولى، وقبل أن أقوم بإدراج إضافاتي، لأن مفهوم الأرض واضح جدًّا في الرواية، حتى لو كان هذا الوضوح يجمع بين النقيضين أو النقائض، بما للأرض وما عليها، باتساع أو ضيق معناها. كما أن فكرة الذاكرة تُثَقِّل على راوي ذاته، وخاصة عندما يقارن بين ما كان وبين الحاضر، عندما يعاني من فقدان الذاكرة والتشويش التي يغلب عليه أحيانًا عندما تبدأ ذاكرته في الرجوع إليه، ويبدو أن سلوك إخوته هو الذي أعاد له ذاكرته، وإن كنتُ غير متأكد من ذلك، لأن راوي ذاته يبدأ بمشهد إخوته

وببداية استعادته لذاكرته، دون أن يذكر إن كان هناك شيء قد سبق هذا المشهد وهذه البداية يمكن أن يكون قد لعب دورًا في بداية يقظته)

- كوميديا طافحة (وكنْتُ قد اخترتُه عندما بدأتُ أشكُّ في حقيقة ونوايا الشخص الذي كلَّفني بالقيام بإخراج الملفات روائيًا، كما أن هناك بعض جوانب الكوميديا في الرواية ذاتها، وخاصة في سلوك إخوة راوي الذين كنتُ أظنُّ في بداية استماعي للملفات الصوتية أنهم ساخرين في سلوكهم وأنهم يفعلون كل ما يفعلونه كنوع من التسلية أو التمثيل، ولكن اتضح أنه حقيقي تماما)

- لا شيء يبقى (وكنْتُ قد اخترتُه عندما اختفى ذلك الشخص تمامًا ولم يعد يردُّ على اتصالاتي، وكنْتُ قد أدركتُ أن النية من وراء تكليفي بالإخراج السردى لا علاقة لها براوي ولا بتوثيق رواياته قبل أن تضيع، وإنما كانت تستهدف توريط راوي وكلَّ الكتاب الذين قد ينتهجون نهجه في صورة ضبابية لا تهدف إلا إلى الضياع وتغييب القارئ في متاهات لا نهاية لها، وعندما أدركتُ أنَّ أجري مقابل الإخراج السردى ضاع عليّ)

- يا غُلبَكَ يا راوي (وكنْتُ قد اخترتُه بعد قراءة المسودة الأولى وقبل أن أقوم بإدراج إضافاتي، فلقد فكَّرتُ في التلاعب بمفهوم الغُلبِ في صيغة الجمع بمعناه اللغوي الأصلي الذي يعني الالتفاف والكثافة والعزَّة والتمنُّع والامتناع، نظرا لكثافة طبقات الرواية قبل تخفيفي لها، ومعنى الغُلبِ في اللهجة العامية المصرية التي تعني المغلوب على أمره الذي لا يستأهل ما يجري له، وأدخلتُ "يا" قبل "غلبك" للتأكيد على الحميمية والقرب والطابع الشفاهي بالرغم من أن الرواية في صيغتها الأولى كان يبدو عليها أنها بعيدة قليلا عنك يا قارئنا الكريم وقارئتنا الكريمة. كما أنني أردتُ أن أعزف على وترى الخاص، فأنا راوٍ أيضًا ورويتُ الكثير من القصص بمقابل ماديّ بالطبع، وكنْتُ قد خرجتُ للغربة منذ سنتين حتى أجد دخلاً يكفيني ويكفي زوجتي وأطفالي، بعد أن بدأت الأسعار تقفز قفزات لا يستطيع دخلي أن يحتملها، وها أنا مغلوب على أمري، فلا أستطيع الرجوع، ولم

يعد دخلي هنا في الغربية يكفي إلا لمستلزمات حياتنا هنا، مع أنني عندما جئتُ إلى هنا كنتُ أستطيع توفير نصفه)

- الخروج الصغير (وهو يتناسب مع حالة راوي في نهاية الرواية، على أساس أن خروجه من بلدته هو الخروج الصغير، وستتبعه أنواع أخرى من الخروج بمعناه الإيجابي المرتبط بالتححرر والانفتاح وغلق الأبواب التي لا تولد إلا الاستنزاف بكل معانيه)

- بداية أولى (هو عنوان ساخر وحقيقي في الوقت ذاته، لأن إخوة راوي يُكثرون من استخدام كلمة البداية والفعل يبدأ في مواقفهم مع راوي في بداية الرواية وفي كلامهم مع بعضهم البعض، وكأن هذه البداية نقطة دوران لا يستطيع البادئ أن يخرج منها؛ فبعد أن يقطع شوطاً على طريق ما بعد البداية يعود إلى نقطة الصفر. ويستخدم راوي كلمة البداية بمعناها الحقيقي، بمعنى أن طريق خروجه من بيته إلى أن يصل إلى باب البلدة الذي يخرج منه أيضاً ما هو إلا خطوة على طريق أكبر سيفتح من خلال حركته عليه أبواباً جديدة تعوض الأبواب التي أغلقها والأبواب الأخرى التي ينوي أن يغلقها بعد أن يلتئم شمله مع أسرته من جديد)

- عاصفة زجاج مكسور (وله علاقة مباشرة ببداية الرواية، وعلاقة غير مباشرة بالرواية ككل، على أساس المقولة التي تنفي إصلاح الزجاج الذي انكسر، ولا يمكن الرجوع إلى نقطة أولى أو إلى ما قبل انكساره. وترتبط العاصفة بأمر راوي عندما تخرج من بيتها القديم لتتنقذ راوي ذاته، ولكن الزجاج يحاصرها ويؤكد على عجزها عن تجاوز العقبات التي تواجهها. ويلعب الأبناء الدور الوحيد في انكسار الزجاج بمعناه الحرفي، مع أن الزجاج زجاج راوي ذاته وزجاج كوب الشاي الذي يشربه).

- والأرضُ إذا تنفَّست (وهو عنوان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالآية القرآنية "وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ" التي أقسم فيها ربُّ العِزَّة سبحانه وتعالى بالصبح في بداياته باعتباره

مظهرًا من مظاهر الخلق والكون وتمهيدًا لتأكيد أمانة سيدنا محمد ونبوته وصدقه وإعجاز الله سبحانه وتعالى في رحلة الإسراء والمعراج. كما يرتبط هذا الصبح في الخيال الشعبي بالأساطير والتحويلات وتداخل الكائنات ووحدة الوجود، وكأن الصبح يتنفس ليمزج أنفاس الخلق بأنفاس الناس الذين يخرجون بعد الفجر سعيًا وراء أرزاقهم. ولكنني آثرت الابتعاد عن هذا العنوان تجنبًا للمشاكل التي قد تصدر عن الناس الذي يصطادون في الماء العكر)

- عسل أسود (وهو عنوان يتداخل في ثنايا الرواية ذاتها مع فيلم "عسل أسود" للفنان أحمد حلمي، ويتداخل مع الكوميديا السوداء في الفيلم وفي الرواية، والرواية تستحق هذا العنوان بامتياز. وتجنب استخدام هذا العنوان لسببين: أولاً، سبب سياسي، لأن الفيلم فيلم سياسي بالرغم من أن ظاهره اجتماعي تماماً، وابتعدت عنه كي لا يأتي أحد ويرفع عليّ قضية تتهمني بأنني أعكر السلم العام وأن أحداث الرواية مقصود بها الوضع السياسي العام، وأنا شخصياً ابتعدت عن السياسة عندما وجدت أنها أكبر مني وأنا لم أعد أفهم شيئاً فيما يدور من أحداث، وأنها تنتهك كل قوانين المنطق والأرض والانتماء والوطن. ثانياً، سبب فني ورقابي خاص بحقوق الملكية الفكرية، فقد يرفع عليّ مخرج الفيلم قضية بأنني سرقت عنوان فيلمه، مع أن العبارة ذاتها عبارة شعبية ويستخدمها الناس بالمعنى ذاته منذ عشرات وربما مئات السنوات. وأي مخرج سردي في زماننا هذا لا يمكن لشهرته ولا لنفوذه أن يصل إلى نسبة ضئيلة من شهرة مخرج سينمائي ونفوذه، فلقد اتضح لي أن نفوذ المخرجين السينمائيين والتلفزيونيين كبير جداً في الوقت الحالي ويتجلى في كل شيء وفي كل مجال. ولا يعني ذلك أنني أتهم مخرج "عسل أسود" بشيء، فأنا أستمتع بالفيلم وببراعته تمثيلاً وإخراجاً وتصويراً ومونتاجاً)

- أرض النفاق (ويرجع عدم اعتماد هذا العنوان إلى الأسباب نفسها التي دعت إلى الابتعاد عن عنوان "عسل أسود"، فأرض النفاق عنوان رواية وعنوان فيلم

مأخوذ عن الرواية ذاتها. ومع أنه يصلح لأن يكون عنوانا للرواية الحالية ولأن يقيم علاقة مع الرواية السابقة والفيلم، فضلتُ الابتعاد عنه تجنباً للمشاكل من جهة، ولكونه عنواناً مباشراً من جهة ثانية، ولكونه لا يغطي كل جوانب الرواية، فالنفاق وظلال أرض النفاق الاجتماعية والسياسية والدينية مجرد جانب واحد من جوانب الرواية)

وهناك عناوين أخرى كثيرة لا داعي لذكرها تركّزُ على حدثٍ أو آخر من أحداث الرواية، مثل العنوان الخاص بالميت الذي يبحث عن جسمه منذ سنوات، ومشهد الجنازات التي لا أعرف إن كانت حقيقية أم تمثيلاً أم صدى للمخاوف التي تدور في نفس راوي، ومشهد الخروج من الباب الكبير للبلدة والسور الذي صار يحيط بها، ومشهد الجبانة بكل تجلياته وروعته. وكلها عناوين خاصة بالموت بشكل أو بآخر، وأنا لم أعد أوّمن بالتركيز على الكآبة والسوداوية في عناوين النصوص، فأعرف، يا عزيزي القارئ وعزيزتي القارئة، إن حياتكما الآن صارت لا تحتل مثل هذه الكآبة، فلديكم الآن في قلوبكم ورؤوسكم ما يكفيكم، وستعتبرون الرواية محاولة للخروج والتنفّس.

وأخيراً، أودُّ أن ألفت الانتباه إلى نقطة صغيرة ولكنها تتضافر مع كافة الأسباب المذكورة أعلاه: لم أشأ أن أضع ما قمتُ بإدراجه في هوامش أسفل الصفحات، وقمتُ بإدخاله مباشرةً في متن الرواية، كي لا تتشتّتوا بين الهوامش والمتن. وأتمنى أن تنال محاولة إخراجي للرواية سردياً إعجابكم وانغماسكم في قراءتها، وضعنا الله وإياكم على طريق الخروج والبراح، وأغلقَ الله الأبواب التي تهدُّ الواحدَ منّا وتجعل حنينه مشلولاً.

المُخْرِجُ السَّرْدِيُّ

20 يوليو 2018

الفصل الأول

لم يكن منامًا، ورفضتُ بشدة الاعترافَ بأنه يقظة. ماضٍ قريب، منذ ساعات أو دقائق؛ فيها أنا على الطريق، أبتعد كي لا أجد نفسي غارقًا في كل شيء، دون أن أستطيع الخروج أو تصفو رأسي. صحيح أنها لم تصفُ صفاءً كاملاً حتى الآن، لكنها بداية، فلييسرُ الله كلَّ البدايات، ولأواصلُ سيرتي في أرضي حتى أخرجَ إليَّ وإلى الفضاء الواسع. اللهم آمين...

كنتُ متكئًا على الدُّكَّة أمام البيت داخل السور أرتشف كوب شاي جهَّزته بالنعناع الطازج من غيطنا، نعم غيطنا، نون الجماعة؛ هل يدفع الإنسان مالا في الكلام؟! كان فعلٌ ماضٍ، وها أنا خارج على الجماعة، ها أنا خارجًا على الجماعة وعلى نونها!! هكذا سيقولون، وأنا أقول إن الخروج دخول من باب آخر، باب يستطيع أن يستوعب ما كان وما صار. لم لا تأتي وتشرب معي الشاي؟! ها هي أصالة تقول في منازلها: "ويا دنيا نفسي ارتاح؛ في قلبي جراح بطول النيل".

نعناعُ زرعته مع أبي في يوم ما، كأنه كان بالأمس القريب، أو البعيد، فمن الذي يستطيع أن يقيس زمنًا بزمانٍ آخر؟! من الذي يستطيع أن يقول إن شهرًا ممتلئًا يقلُّ طولًا عن سنوات؟! فيها هي السنوات تتداخل في رأسي، وتقول لي إنها نقطة التقاء تلتقي فيها كل الأشياء، فلا تعرف من القديم ومن الجديد، ولا ما القديم وما الجديد!! لكنه لقاء حياة على كل حال، وفَرَحْتُ بالرغم من كابوسية المشهد، فيها أنا أعود إليَّ، يتعارف جسدي وإدراكي وتاريخ رأسي من جديد، وأتذكر الوجوه حولي وأتعامل معها على أنني واقع وأنها واقع، كأن جرحًا لم يكن، وكأن رأسًا لم يهوى عليها شيء.

ابتسمتُ بالرغم من أن الصورَ التي تتداخل في ذاكرتي مشوشة؛ ففي هذا الطوفان الذي لا تتميز فيه الصورُ عن بعضها البعض كثيرًا، اكتشفتُ حياةً تترابط، ووجدتُ ملامحَ تعود بعد تهجيرها لتصل ما انفصلَ من تاريخي. لا بأس. سيتضح لاحقًا ما أراه باهتًا الآن، سأعودُ إليَّ عما قريب، سيشتغل كلُّ شخص وكلُّ شيء مكانه بعد أن يهدأ طوفان التداخل ويرسو الفلكُ حيث تكون الحياة وحيث أكون أنا من جديد فعلاً تامًا وناقصًا ومكتملاً ومكتملاً.

يا الله! لا حول ولا قوة إلا بالله! هل قلتُ غيظنا؟ كان غيظنا في اليقظة التي كنتُ أعترف بها، لكنه تحول في اليقظة التي لا أستطيع أن أعترف بها إلى بيتهم. تجمعوا حولي كمشهد من مسرحية "ريا وسكينة"، ولكنه كان أشدَّ تكثيفاً. كان السور يحدثُ الدَّكَّةَ التي أتكى وأمدد رجلِيَّ عليها، من جانب، وأحاط ثلاثة منهم بالجانب المقابل له، ووقف واحد منهم بعَرَضِها، ووقف خامس بعرض الدكة الآخر. تبادلوا النظرات فيما بينهم، وكنتُ أراهم كما لو كانوا في مشهد تمثيليٍّ ساخر يتعامل بجدية تامة مع موقف عابر أو روتينيٍّ أو معتاد، وكأنهم يريدون أن تقلبَ سخريتهم الموقفَ رأساً على عقبٍ.

استقرَّ اتِّفاقٌ ما بين نظراتهم، وتحركوا ببطءٍ دون أن تنتقل أقدامهم، لأنهم كانوا يحيطون بي بالفعل ولا توجد مساحة بيني وبينهم يتحركون خلالها نحوي. مدُّوا أياديهم نحو كوب الشاي الذي كنتُ أمسك به في يدي. وأمسكوا به بحرص وهدوء كي لا ينسكب في الغالب، ومثّلوا مشهدَ انتزاع الكوب من يدي وكلُّ يضع جزءاً من يده على الكوب كي يكونوا جميعاً شركاء فيه على ما يبدو. وفي لمح البصر برق في رأسي مشهد اقتراح سيدنا محمد بعد حريق الكعبة وإعادة بنائها أن يضع الحجر الأسود على ثوب يمسه بأطرافه ممثلون لكل القبائل، وتداخل هذا المشهدُ مع مشهدٍ لاحقٍ تآمرت فيه القبائل على سيدنا محمد وهم يخططون لقتله جماعةً كي يتفرَّق دمه بينها. لا أعرف لماذا ابتسمتُ للمشهد مع أن كل شيء يقول إن نقطة الالتقاء ليست إلا بداية شتات. وخطر في بالي أيضاً سيدنا عيسى والماء الذي يتحوّل إلى دم، وتداخل معه المثل الذي يتكلم عن الدم الذي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتحوّل إلى ماء. وسمعتُ الآية القرآنية: "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ"، ولا أعرف إن كان الصوتُ نابغاً من داخلي أم سمعته بالفعل حولي. ووجدتُني أردد الآية: "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا" وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا"، وأتبعنها بالآية: "قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ"، دون أن أستطيع أن أستوعب مغزى كل ذلك، لكنني فرحتُ من الداخل، لأنني أحسستُ أن التقاء كل هذه الأشياء يقول لي بأنني على الطريق وأنني بدأتُ في جميع أشتاتي وأن كل ذلك الشتات والضياح

والغرق ما هو إلا صفحة تنطوي الآن أمام عيني، ولا مشكلة في أن تنطوي بهذا المشهد التمثيلي:

وقفتُ أياديهم بكوب الشاي فوقى بالضبط، وتركزت نظراتُ عيونهم على الكوب، وبدأتُ تنتقل بالتدرج إلى أن التقتُ بنظرة عيني. توقعتُ أن ينفرج المشهد التمثيلي بأن ينكسر جمودُ نظراتهم وتقشعر أجسامهم وترتجف قلوبهم عندما التقتُ نظراتنا. ولكن نظراتهم ظلت كما هي، فبعد أن تسلطتُ عليّ لمدة دقيقة تقريباً، بدأتُ في الانتقال تدريجياً إلى الكوب، ثم التقتُ نظراتهم وبدأتُ في الكلام، فيبدو أنهم كانوا يختارون أو ينتخبون من سيبدأ في ارتشاف قطرات من كوب الشاي. قال أخي الأكبر من بين الظاهرين في المشهد:

- ابني صار رجلاً. وأنا الذي سأبدأ برشفتين. هذا حقّي الشرعي.

وبالرغم من أنني لم أجد رابطاً بين كلامه في حد ذاته، ولا بين كلامه بوجه عام وارتشاف قطرات الشاي، ولا بين الموقف الأكبر والنزاع حول كوب الشاي، وجدتهم يهزون رؤوسهم ويعلنون موافقتهم باقتناعٍ شديدٍ، وكأنهم يقفون وقفةً تاريخيةً ويرفعون من شأن المصلحة العامة على مصالحهم الشخصية. وما إن ارتشف رشفتين، قال أخي الذي يليه:

- بنتي صارتُ في سنّ الزواج. أظن أن لي الحق في ثلاث رشفات.

دمعتُ عينا أخي الذي يليه، وقال في تأثرٍ شديدٍ:

- لا يا أخي. الحقُّ أحقُّ أن يُنْبَع. لك أربع رشفات كاملة. سترُ البنتِ واجبٌ ونحن أهل الأصول والواجب.

صرخ أخي الرابع عندما ارتشف أخي الثاني أول رشفة، قائلاً:

- لا، هذا عبثٌ. رشفتكُ بعشر رشفاتٍ. لا تطمع.

نظر أخي الثاني إلى الكوب وظهرتُ عليه علامات تأثرٍ واضحة، وقال:

- أنا آسف. جاوزتُ البحرَ. أنا آسف مرة أخرى.

ونظر إليّ نظرة طويلة، ثم أكمل كلامه:

- ولكن رشتني بسبع رشفات فقط. هذا هو الذي أخذناه من المدارس!! من الذي علّمك الحساب؟

قال أخي الرابع، وهو يشير إلى السور بجانبني:

- هذا الجدار يريد أن ينقضّ.

فقال أخي الأول:

- أنا سأبنيه، ولكن علينا أن نتفق على تقسيم الكنز الذي تحته أولاً.

قال الباكون في نفس واحد:

- لا مشكلة. لن نختلف على طريقة التقسيم. هو كنزٌ على أي حال. والكنز كانزٌ ومُكنزٌ

فضحك أخي الثالث وقال:

- وبينهما طازج.

صمتوا فجأة بعد تلك الضحكة وعادت نظراتهم إلى كوب الشاي الذي وضعه أخي الثاني على طوف السور. وقال أخي الثالث في جدية تامة:

- هل يجوز أن نشرب من الشاي الموضوع على السور الآن بعد أن عرفنا بأن هناك كنزاً تحته؟

بدت على أخي الرابع علامات تأمل واستغراق في التفكير، وقال:

- هناك قولان: القول الأول هو الإباحة، بدليل أنكما (وأشار إلى أخي الأول وأخي الثاني) شربتما منه منذ قليل. أما القول الثاني فيجيز الشرب ولكن بشروط، وهي أن نستخرج الكنز أولاً، ثم نبيع جزءاً منه قبل أن نقتسمه، ونشتري شايًا وسُكَّرًا من ثمنه، ولا حاجة لنا لأن نشتري النعناع، فلقد اقتلعتُ منذ قليل كل النعناع الذي

في الأرض وتركته ليجفّ. ويمكننا أن نضع منه على الشاي أو لا نضع، حسب ما سيسفر عنه الاستفتاء الذي سنجريه على الملأ (وأشار إلى داخل البيت القديم).

سمعتُ صوت تصفيقاتٍ استحسنٍ، ولكنها ليست مثل تلك التصفيقات التي تصدر من المشاهدين في المسرح مثلاً، وإنما كانت تصفيقات شخصٍ في مكان خاص يرى أمامه شخصاً يُحبُّكُ أمامه كلاماً يبدو في إظهاره أو ظاهره على أنه صادق، والشخص الجالس يعرف أنه يمثل أو يكذب أمامه وعليه، فيصفق له بأن يثبتَ وَضْعَ أحدِ كَفَّيه وينزل عليه بالكفّ الآخر عدة مرات متتالية، ولكن يوجد فاصل زمني بين كل نزلة وأخرى، ثم يقول في نهاية التصفيق:

- أحسنت. برافو، برافو.

ولكنني لم أسمع كلمة "أحسنت" ولا كلمة "برافو". سمعتُ فقط صوتي أخي الثالث وأخي الرابع وهما يقولان معاً:

- هيا نشرب الشاي قبل أن يبرد.

أمسكا بكوب الشاي من على السور، وتناوبا الرشف منه في ببطء وتلذُّذٍ. وأحسستُ بقلبي ينبض، وكأن أحداً يشفط قطراتٍ من دمي، فلقد أحسستُ بحركة غير عادية في أحد عروقي. قال أخي الأول:

- لا ترتشفا التُّفل، فأنا أحبه.

ردّ عليه أخي الثالث:

- هل التاء بالضم أم الفتحة أم الكسر؟

قال أخي الرابع:

- لن نضيع وقتنا في هذه القضايا الخلافية، واختصاراً أقول إن كل الحالات تجوز.

القضية المطروحة أمامنا الآن هي: هل يجوز أن يأخذ التفل أم لا؟

قال أخي الثاني:

- يجوز طبعًا. هو أكبرنا، و"كلام أخيك الكبير يصير يا حسانين".

أنزل أخي الرابع نظرته إلى طرف الدكة في استكانة وتسليم، ثم رفعها بالتدريج إلى مستوى نظر أخي الثاني وهزّ رأسه كأنه يستفسر منه عن شيء. ابتسم أخي الثاني ابتسامة واسعة وقال:

- لا شيء. كل ما أحтаجه هو أن تستبقيا لي الرشفة الأخيرة.

قال أخي الرابع:

- هذا ظلمٌ بيّن. الحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ. وجُحا أولى بلحمِ ثوره. شظايا الكوب ستكون

من نصيب أخي (وأشار إليّ). الظلم ظلمات يوم القيامة وأنا على باب الله.

صمتوا جميعا بعد أن ابتلع أخي الأول كلّ النقل المتبقّي في كوب الشاي. وأمسكوا جميعا بالكوب، وحركوا أياديهم الممسكة بهذا الكوب لأعلى ولأسفل عدة مرات وهم يقولون كأنهم يلعبون إحدى الألعاب القديمة:

- كُلُّوا بامية.

وانفتحت بطونُ أياديهم على أكواب صغيرة كأن كوبي تشكّل فيها، وكل كوب عليه صورتِي. تهللت وجوههم بالفرحة، فوضعوا الأكواب على طرف الدكة ورصّوها بجانب بعضها البعض. ثم تراجعوا للوراء إلى جذع الشجرة وأخذوا يصفقون ويتبادلون السلام فيما بينهم. أعطوا لي ظهورهم ويبدو أنهم كانوا يتشاورن في شيء ما، ولكنني لم أسمع أصواتهم. عادوا إليّ. أمسك كل منهم بكوب وضَمَّ عليه يده بشدة. يبدو أنهم كانوا يريدون للأكواب أن تنكسر بين أياديهم. وعندما لم تنكسر، ظهرت عليهم علامات حزن واضحة، فرصّوا الأكواب بجانب بعضها البعض على طرف الدكة من جديد وعادوا إلى جذع الشجرة. لم يطل وقوفهم هذه المرة، فعادوا بسرعة إلى الأكواب، ولكنهم بدؤوا في التشاجر، فقال كل منهم إنه له كوب معيّن ولا يمكنه أن يأخذ أي كوب عشوائيًا هكذا. وهنا اقترح أخي الأكبر:

- لا شأن لنا بالأصابع التي ليست مثل بعضها البعض، لكن أيادينا مثل بعضها.

فلنضع أيادينا بجانب بعضها البعض كما لو كانت صينية كبيرة، ثم نرص

الأكواب عليها، وهنا تصير كل الأكواب أكواب الجميع. وفي هذه الحالة يأخذ كل منّا كوبًا سيكون كوبه.

استحسنّت حركات رؤوسهم هذا الاقتراح، وقال أخي الرابع:

- حسنًا. هذا اتفاق مُرضٍ للجميع. ولكن علينا أن نستفتي على المكان الذي سنضع عليه أيادينا بجانب بعضها البعض: هل على طرف الدكة مكان الأكواب؟ أم على السور الذي كان عليه الكوب من قبل؟ أم على باطن هذا الذي يرقد على الدكة ودعا إلى الثورة؟

نظر إليهم أخي الثالث وبدأ في التحرك بجدية بعيدًا عنهم نحو مدخل البيت الجديد، فسأله أخي الأكبر:

- إلى أين أنت ذاهب؟

ردّ عليه وعلامات الغضب بادية على وجهه:

- ذاهب إلى ذلك الذي دعا إلى الثورة فأضرّ بجهينة كلّ الضرر.

أوقفه أخي الأول بأن أمسكه من يده وقال له:

- إلى أين أن ذاهب يا عبيط؟ ها هو هنا على الدكة. أمك هي التي كانت هناك.

بدت علامات خجل على وجه أخي الثالث وقال:

- صحيح، إلى أين أنا ذاهب؟ ها هو الذي أضرّ بنا كل الضرر.

قال أخي الرابع:

- لا تقلقوا. عند جهينة الخبر اليقين على أية حال. جهينة ولادة يا أولاد.

صفق له الباقون وقالوا:

- يبدو أنك كبرت يا ولد. لا بدّ أن تدخل الآن في طقوس العبور.

أردت أن أصرخ فيهم وأقول لهم:

- ابتعدوا عن طقوس العبور. لا تفسدوا الأمل. طقوس عبوري التي كانت لا يمكن العبث بها الآن. احترموا حرمة اللحظة يا أغبياء!

ولكنني لم أستطع أن أقول شيئاً، ويبدو أنه لا حُرمة لراوٍ في روايته ولا في أرضه، مع أنني عندما كنتُ راوياً في "طقوس العبور" كنتُ قادمًا إلى هنا، إلى جهينة، على أساس أنها نقطة البداية والامتداد والجذور والأصول. وها أنا هنا بعد فاصل يبدو أنه طويل.

قال أخي الرابع وعلى وجهه ابتسامة واسعة وعلامات استبشار:

- عَبَّرُونِي يَا إِخْوَتِي. كيف سيكون عبوري؟

قال أخي الأول والباقون ينصتون له:

- الأصول أصول. والعبور يتشكَّل حسب الموقف الذي نحن فيه ساعة أداء طقوس العبور. ما الموقف الذي نحن فيه الآن؟

قال أخي الثاني:

- أكواب الشاي التي عليها صور ذلك الذي أضرَّ بالنعناع.

قال له أخي الثاني، ويبدو كما لو كان يوشوشه مع أن صوته مرتفع كما هو:

- يا غبي، هذا هو الذي اقتلع النعناع.

وأشار إلى أخي الرابع. فصمت أخي الثاني وبدأ عليه علامات خجل، وقال:

- أكواب الشاي التي عليها صور ذلك الراقِد على الدكة وأضرَّر بجهينة كلِّ الضرر.

هزَّ أخي الأول رأسه استحساناً لقول أخي الثاني وسأل أخي الثالث:

- ما الموقف الذي نحن فيه الآن من وجهة نظرك يا أخي؟

قال أخي الثالث بعد تفكير قصير:

- الشاي الذي سنشربه بعد أن نبيع جزءاً من الكنز.

هزَّ أخي الأول رأسه لكلام أخي الثالث. ونظر إلى أخي الرابع وسأله:

- بعيداً عن الدخول في تفاصيل، ما رأيك؟

قال أخي الرابع:

- من دون تفاصيل تُذكّر، الذي شرب أكبر رشقات من الشاي هو الذي يبدأ؟

ردّ عليه أخي الأول:

- أحسنت. نبدأ كل شيء من جديد. هيا بنا نبدأ.

وتحركوا نحو جذع الشجرة التي بدأت أسمع حركة العصافير والطيور وأصواتها من عليها. أداروا ظهورهم نحوي وأخذوا يتشاورون. ورأيت أطراف أكواع أيديهم تتحرك وسمعتهم يقولون:

- كُلُوا بامية.

واستداروا نحوي يتقدمهم أخي الأول. أمسك كل منهم بكوب من الأكواب، وقرب فوهته نحو فمه، وقال أخي الأول وكأن الكوب مكبر صوت أمام فمه:

- في ظل هذه الظروف العصيبة التي تمرُّ بها جهيئة، اتضح لنا الخبر اليقين، قررنا نحن المائلون في جهيئة أباً عن جدٍّ ولم نغادرها ليوم واحد أن نفوض الأخ الرابع لبدأ، تقديراً لعبوره وطقوسه.

صفّقوا جميعاً، بمن فيهم أخي الأول. وتقدموا بحركات بطيئة نحو أخي الرابع، ومدّوا له الأكواب كلها، قائلين:

- تخيّر منها ما تبدأ به.

أمعن أخي الرابع النظر في الأكواب وقال:

- قبل أن نبدأ لا بدّ من أن نغسل هذه الأكواب كلها بماء طاهر، فنحن لا نعرف من أين أتت، وهذا الكاهن (وأشار إليّ) ربما قرأ على الكوب الأصلي شيئاً دون أن ندري.

استحسنوا رأيه وأمسك كل منهم كوبًا وذهب به إلى حنفية المياه بجانب السور الآخر وأخذوا يتميلون يمينًا ويسارًا وهم يقولون:

- بسم الله الرحمن الرحيم. رقيناك من عين الكُهان ومن عين الشيطان والجان، رقيناك واستطهرناك وأعليناك علوًا كبيرًا. نو باخ، نو باخ، صاخ، طاخ، راخ. هिला هوب، هिला هوب. طُبّ ساكنًا يا ابن الذي لا يُسمّى. شاي شاي شاي، شاي، كوب، كوب، كوب. هُبّ، هُبّ، هُبّ.

وفجأة سمعتُ أصواتَ أشياءٍ تخبّط بعضها البعض، كأن هناك عاصفة هبت بالفعل، ووجدتُ أمي تحاول أن تُسرّع نحونا وهي تتحامل على قدمها التي بدا عليها أنها مكسورة أو مصابة. هممتُ أن أنهض لأسرع إلى أمي وأجعلها تتكئ عليّ، لكنهم جميعًا حولوا قَعَرَ أكواب الشاء نحوي كأنها مسدسات، ووضعوا جميعهم أصابعهم على أفواههم بطريقة رأسية، ليأمروني بالسكون وعدم الحركة. والغريب أنني وجدتُ نفسي أستكين لأوامرهم. وقال أخي الثاني:

- لا تقلقوا منها. ستنصرف بعد قليل. هل هي عادتُها أم ستشتريها من سوق الخميس؟ تعرفون أنها تهبُّ وتثور ثم تهدأ وتعود إلى...

توقّف عن الكلام عندما نظر إليه أخي الأول وأشار إليّ. فقال أخي الثاني دون أن يحدد من الذي يتكلم عنه:

- هو دائمًا يتمسك بهذه الأشياء التافهة. الحيّ أبقى من...

وتوقف عندما نظر إليه أخي الثاني أيضًا، وأشار بيده إشارة حاول أن يخفيها وراء ظهره، ولكنني فهمتُ منها أنه يريد لشيء أن ينصرف أو يطلب من أخي الثاني أن يبتعد عن شيء ما. وفجأة صرختُ أمي صرخة مدوّية رددتُ أصداؤها الطيورُ التي على الشجرة، فقوّى كل منهم قبضته على الكوب الزجاجي الذي بيده، وقذف اثنان منهم كوبيين نحو الأرض التي تسير عليها أمي، وقذف الاثنان الآخران الكوبيين المتبقيين نحو الأرض التي بجانب الدكة، فدوّى صوتُ الانكسار في المكانين، وتعالى صراخ الطيور التي على الشجرة.

وقفتُ أمِّي حائرة أمام شظايا الزجاج، ولم تعرف ماذا تفعل، كانت عيناها تتبادلان النظرات ما بين الشظايا وقدميها، وكأنها تسأل قدميها عما يمكنهما أن يفعلن. نظرتُ يمينًا ويسارًا، كأنها تبحث عن مَخْرَج، ولكنها رأت الشظايا تملأ كل الطريق أمامها ما بين المنضرة القديمة وسور الحمام القديم من الجهة الأخرى، ولا أعرف كيف تكاثر الزجاج لتملأ شظاياها كل هذا المكان! تحاملتُ على نفسي ونهضتُ دون أن أبالي بنظرات إخوتي المهددة، فكيف أترك أمِّي في وضع كهذا؟ أشار أخي الرابع نحو شظايا الزجاج التي بجانب الدكة، فبدأت الشظايا في التحرك، وأدركتُ أن شيئًا خطيرًا سيحدث، فقفزتُ باتجاه أمِّي، ولكن شظية تضخمت والتصقت بقدمي ووجدتُ الدماء تسيل من قدمي كما وجدتُ أمي تختفي وهي تنوح نوحًا هادئًا وعميقًا في نفس الوقت يتباطأ صوته بالتدريج إلى أن يصمت تمامًا. وقال أخي الثاني:

- ما الذي تفعلونه يا جماعة؟ ما هكذا تكون الأصول!

ونظر إلى أخي الرابع نظرة طويلة، فأشار الثاني بيده للشظايا، فعادت إلى أماكنها وإلى حجمها الطبيعي. وأشار إلى القطعة التي في قدمي، فوجدتُ القطعة تدفعني للوراء إلى أن رقدتُ على الدكة من جديد، وكأن طاقتي نفدت تمامًا. أشرتُ إلى الدم الذي يسيل من قدمي، فقال أخي الثالث:

- شوفوا الطمع يا أولاد! ألا يحمد ربه على أنه عاد إلى الدكة. عشنا وشفنا. وربما يطلب بعد قليل أن نحمله ونسير به في الأرض!! اللهم أكفنا شر الطمع والطماعين.

قال أخي الأول:

- سبحان الله. الله في خلقه شؤون. ولكن ألا ترى أنها فكرة جيدة؟

ونظر إلى أخي الثالث، فقال أخي الثاني:

- هل تفكرون فيما أفكر فيه؟

ابتسموا جميعًا وقال الرابع:

- أنا الذي أتكلّم. الطقوس طقوسي اليوم، والعبور عبوري. والطقوس طقوسُ جنورٍ
هذه المرّة. أحفظُ كلّ شيءٍ على قلب رجل واحدٍ. نحمله

رددوا وراءه:

- نحمله

قال الرابع:

- ونسير به.

رددوا وراءه:

- ونسير به.

قال وهو يضع طرف إصبعه على جانب رأسه، كأنه يلفت انتباههم إلى شيء ذكي أو
قول منطقي سيفعله أو يقوله:

- ولكن بدلا من أن نسير به في كل الأرض، نأخذه إلى الغيط الغربي

رددوا وراءه:

- نأخذه إلى الغيط الغربي

قال مبتسماً:

- وكلكم تعرفون الذي تهفُّ نفسه على الذهاب إلى الغيط الغربي.

رددوا:

- تهفُّ نفسه. كلنا نعرف.

ردد الأربعة كلهم:

- كلنا نعرف، كلنا نعرف، كلنا نعرف.

وأنا لا أعرف. كنتُ أسمع في صغري أن ثلاثة من جدودي وفي أوقات مختلفة طلب
كل منهم قبل أن يظهر عليه أي شيء يدل على المرض أو الموت أن يذهب إلى الغيط

الغربي. وبعدها عاد كل منهم مات على الفور، وكأنَّ نداءً أرض الغيط الغربي طقسٌ من طقوس الفراق والموت، وكأنَّ الذي يقضي حياته وسط الأرض ويرتبط بها لا بدَّ أن يودَّعها قبل أن ينتقل إلى العالم الآخر.

قال الرابع:

- هيا بنا.

ضحك الثلاثة ضحكات طويلة بدتْ حقيقيَّةً لدرجة أن كلاً منهم اتكأ على جزء من السور كي لا يقع من كثرة الضحك. وقال الأول:

- لا مشكلة. البداية لا تخلو من عَشَمٍ في أحيان كثيرة.

ونظر إلى أخي الرابع وقال:

- يا عبيط، هذه طقوس عبورك. ومجرد الكلام في الشيء يعني القيام بهذا الشيء. سأشرح لك الموضوع كي تنقله لأولادك فيما بعد: عندما تكلمنا عن أخذه (وأشار إليّ) إلى الغيط الغربي، فهذا يعني أننا أخذناه بالفعل.

سأله أخي الرابع متلهّفاً:

- هل سيذهب الآن؟

قال أخي الثاني:

- والله الموضوع محيّر. وأنت جديد (وأشار برأسه إلى أخي الرابع) ولا يمكننا أن نستفتيك. في الطقوس السابقة، كان الكلام عن شيء خاص بالشخص العابر. وفي المرات السابقة كان الشخص الذي سيذهب إلى هناك (وأشار بيده نحو الغرب ولا أعرف إن كان يشير إلى أرض الغيط الغربي أم إلى المقابر التي في غرب البلدة) هو الذي يذهب إلى الغيط الغربي بنفسه...

قاطعه أخي الأول، قائلاً:

- لا تقلق يا أخي. فالخبر غداً بلا ثمن، وما زالتُ جهينة عندها الخبر اليقين على أية حال. هذا تاريخ ولا يمكن لأحد أن يغيّره. علينا الآن أن نبدأ.

ونظر إلى أخي الرابع، ثم إلى شظايا الزجاج، وقال له:

- هياً ابدأ، ولكن بعيداً عن أمك هذه المرة. خلّ الذهاب يمرّ بأمان وسلام.

فقال أخي الرابع:

- وعليكم السلام. لا بأس. ليستُ مشكلة على الإطلاق. منذ متى ونحن يوقفنا شيء تافه هكذا؟! جراب جهينة لا يخلو من الحيل.

وفرك إصبعين من أصابع يده الشمال باتجاه الشظايا، فالتحمت كلها من جديد ولكن مع زيادة عدة الأكواب، ووجدتُ أربعة أكواب في يد كل منهم، دون أن أعرف سرّ الرقم أربعة، ففي المرة الأولى تحول الكوب إلى أربعة أكواب، وها هو كل كوب من الأكواب الأربعة يتحول إلى أربعة أكواب، كما أن الشظايا التي كانت تحجز أمي عنّي ظلّت أو عادت كما هي، وكأن كل كوب من الكوبين اللذين كانا بجانب الدكة تحول إلى ثماني أكواب. أعرف أن الرقم سبعة له مكانة خاصة، سواء أكان بمفرده أم بمضاعفاته، لكن الرقم أربعة جديد في الخدمة على ما يبدو، ولا أعرف إن كان لذلك علاقة بعبور أخي الرابع أم لا.

وضع كل منهم أكوابه على السور بعيداً عنّي، وقوى كل منهم قبضته على كوبٍ وقذف به نحو الأرضية الاسمنتية بجانب الدكة، ومع صوت الشظايا تصاعدت أصوات الطيور التي على الشجرة، ولكن صوتها أخذ صوتَ نواح أمي. ومع قذف الكوب الثاني، تصاعد صوت النواح، إلى أن علا تماماً مع قذف الكوب الرابع، وكأن العصافير والطيور تمسك بمكبرات صوت وتنوح فيها.

لماذا غزوت يا أبا زيد؟! لماذا تفتّحت أزهارُ الياسمين واللوتس؟! أشمّ عقدَ فلّ وعقدَ ياسمين وعقد لوتس في خيالي؟! هل هذه العقود حقيقة؟! هل أنا مستيقظ حقاً أم أنني في كابوس لا أعرف كيف أخرج منه؟ سأغمض عيني في هذا الكابوس، فربما أختفي أو يختفي

هو، وربما أنام داخله، ولن يتبقى أمام هذا الكابوس أحدٌ مستيقظًا حتى يتخايل عليه هكذا!! لم تختفِ الأصوات مع أنني أغمضتُ عيني. نعم أنا وإخوتي وأخواتي عددنا أحد عشر أخا وأختا، ولكن أبي مات منذ سنوات، وتلك البئر التي عند المقابر جفَّ ماؤها منذ سنين، ولا يعبر بها أحد. فتحتُ عيني، كان الوضع كله حقيقيًا، ووجدتُ نفسي ممددًا على الدكة كما أنا، متيقظ وبعض إخوتي كما هم واقفون حولي أو فوق، ولكنني لم أجد أخي الخامس الذي رأيته من قبل بينهم...

سكن الهواء فجأة، وكذلك العصافير والزارزير قبل الغروب عندما علت أصوات شظايا الزجاج على الأرض كأنها تريد أن تطغى على صوت العصافير والطيور، وكأن الطيور والعصافير تكتم أنفاسها لتشاهد ما لم تره من قبل. حتى الهدد رأيته على غصن الشجرة يقف مشدوهاً كأنَّ تاريخه لا يمده بتجربة قد تقلل الاندهاش. لم يكن لدي وقت للاستغراب من وجود الهدد فوق الشجرة.

أخذ صديقي الغراب وضع الاستعداد، وقبل أن يصل بمنقاره إلى عين أحدهم كأنه سيُعيد تمثيل مشهد ختامي من فيلم "آلام المسيح"، هوى أحدهم بالفأس عليه، فانقسم نصفين، وظل جناحه يرفرفان انتفاضًا أو ثورةً بعنف، كأنه يريد أن يفجر نفسه لتختفي صورة قائمة من رأسه الصغير الذي انفصل عنه.

سبحان الله! حتى الغراب يرفض الضربة، فها هما نصفاه يتحولان إلى غرابين، وكل غراب منهما صار أشدَّ شراسةً واستماتةً ودفاعًا عن نفسه وعني، أو هكذا أظن، فتجاري السابقة، التي عايشتها بنفسي في "طقوس العبور" وفي "على أعتاب العبور" وعایشها غيري قبلي حتى بدء الخليقة، تقول بأن هذا الغراب له أفضالٌ عليّ، ولا بدَّ أنه يدافع عني هنا...

وضع كل إخوتي أياديهم على أعينهم كي لا ينقرها غراب أو هدد. يبدو أن الغرابين تذكرا شيئًا، فلقد عادا إلى الشجرة، وأخذوا ينظران إلى بعضهما بعضًا، وانتقل أحدهما ليحط على السور وظلَّ الآخر فوق الشجرة ليراقب الموقف في الغالب.

دخل إخوتي في شجار لا أعرف سببه، فلقد أحسستُ أن رأسي مشوشة قليلا، ولا أدري إن كان التشويش ناتجا عن الصدمة من هول الموقف الذي لم أكن أتوقعه، أم أنني مريض أو تلقيتُ صدمة على رأسي من قبل!

كنتُ أظنُّ أن أفلام الرعب التي يظهر العنف فيها بشكل غير مُبرَّرٍ أحيانا هي محض خيال يصوِّرُ طاقة العنف الكامنة داخل بعض الناس ولا يستطيع هؤلاء الناس التنفيس عنها بطرق إيجابية بناءة، فيتجهون إلى إخراجها بهذا الشكل الفجّ في بعض الأفلام الرديئة، مع أن هناك بعض أفلام الرعب يكون العنف فيها صدّي لجانب خفي وواقعي من جوانب حياة الإنسان، أو بمعنى أدق حياة البشر الذين كانوا من قبل، وكأنهم يعاودون الظهور ليقولوا إنهم مازالوا موجودين في حياتنا.

ولكنني لستُ في فيلم، فكل ما حولي واقعي تماما: تلك الدكة التي كنتُ أضطجع عليها، وتلك شجرة النبق، وذلك موتور المياه، وذلك بيتنا، أو بيتي أنا وبعض إخوتي الذين كانوا غائبين عن المشهد. لكنني أحسستُ بأنني قديم في الزمن، لا، ليس هذا التعبير دقيقاً، أحسستُ في البداية بأن ذاكرتي في سديم، هل "سديم" هي الكلمة المضبوطة هنا؟ بمعنى أنني أحس بأن هناك ستارة على ذاكرتي تفصل بين مساحتين أو مشهدين، وكأنني واقع من منطقة الذوبان بين لقطة وأخرى في فيلم، دون أن أتذكر اللقطة السابقة ودون أن أعرف شيئا عن اللقطة التالية، هو برزخ ضبابي، وفي الوقت ذاته ليس برزخ الموت أو ما بعد الموت، فاستبشرتُ برغم كل ذلك الكابوس، فلا أنا في فيلم رعب ولا أنا ميت، هل من الممكن أن يكون إخوتي يمثلون أمامي أو عليّ مشهداً كأنني في برنامج كاميرا خفية وهم يعرفون أنني متابعٌ جيّدٌ لأفلام الرعب والأفلام العربية والأجنبية بوجه عام، ولذلك يحاولون أن يرفّخوا عني بعد ذلك المرض الذي أظنُّه كان يصيبني؟!

كان مَنْ يُفترضُ أنهم إخوتي مازالوا يتشاجرون ويحتلون الطريق نحو داخل البيت القديم حيث ترقد أُمي، بالرغم من أنني بدأتُ أشكُّ في كل شيء. وكانت شظايا أكواب الشاي متناثرة على الأرض بجانب الدكة نحو المخرج خارج السور. إن خطوتُ للذهاب نحو أُمي،

ربما ينتبهون إلى انخراطهم في الشجار وينصبون أعينهم وأسلحتهم حارساً أبدياً يخطط موضعَ جسمي على الكنية إلى أن يقتسموني. وإذا قفزتُ نحو البوابة الموصلة إلى خارج السور سينفر الدم من قدمي وربما لا أستطيع الفرار. لم يتبقَ إلا أن أقفز من فوق السور، وفي ذلك احتمال أن تنكسر رجلي أو تنزع، وقد لا أستطيع الفرار أيضاً. ها أنا أذكر أن في خارج السور مباشرة كومة حطبٍ بالقرب من المنطقة التي نشعل فيها النيران في الخشب والفحم....

كنتُ أنظر إليهم ولا أستطيع أن أستوعب منظرهم ولا حركات أعينهم ولا اللغة التي لا أعرف حروفها التي يتبادلونها بالإشارات والنظرات وحركات جسدٍ تنمُّ عن فصاحة كأنها بلغة أجنبية لا أتقنها ولا أعرف حتى حروفها أو اسمها.

عادوا جميعهم إلى جوار الدَّكَّة، كلٌّ في موضعه السابق، والغريب أن أخي الخامس ظهر بينهم كأنه لم يكن مختفياً طوال ذلك المشهد الكابوسي. وقال أخي الأول:

- لا امتياز لأحدنا على الآخر الآن. لن يكون هناك الأخ الأول والأخ الثاني والأخ الثالث... كلنا أخوة ولا يحقُّ لذلك الثائر والأديب والكاهن أن يصنّفنا. كلنا على هذه الأرض منذ أن وُلدنا.

قال أخي الذي كان الثاني:

- وما دمتَ قد ذكرتَ الأرض، ما رأيكم أن نمثّل مشهداً من فيلم "الأرض"؟

فبدؤوا جميعاً في غناء أغنية فيلم "الأرض"، وتحركوا نحوي في حركات جادة وصامتة ومحسوبة وأمسكوا بي ببطء وهمّوا أن يرفعوني، ولكن أخي الخامس قال:

- ولماذا نتعب أنفسنا؟ إذا كان الموضوع تمثيلاً، فلننتظر بأننا نحمله وأنا نرميه على الأرض، ونبدأ المشهد من بداية إلقائنا له على الأرض.

رَبَّتَ كبيرُهم على كتفه مستحسناً اقتراحه. ووضعوا أياديهم على جسمي من جديد كأنهم سيعملونني، وبعدها رفعوا أياديهم وكل منهم يرسم ملامح الجهد والتعب على وجهه

ويصدر أصواتٌ توجُّعٍ، وتحركوا نحو جذع الشجرة، وبدا عليهم وكأنهم يسحبون جسمي على الأرض ويجرونه كما في مشهد التنكيل الذي في الفيلم، وهم يتغنون:

- "أرضنا العطشانة نرويها بدمانا".

رفع أربعة منهم أياديهم كأنهم انتهوا من المشهد، لكن أخي الذي كان الرابع قال لهم:

- لا يصح أن نتركه هكذا؛ لا بد أن نعيده إلى الدكة حتى نبدأ.

فنظر إليه كبيرهم نظرة طويلة كأنه يوبّخه، وقال:

- ولكنه هناك على الدكة.

وأشار إليّ. فقال له أخي الرابع:

- أين المصادقية؟ تخيّل أن أحدًا كان يصوّر المشهد، هل سيصدق المشاهدون؟ لا

بد أن نتقن عملنا، أم سيقول علينا ذلك المصوّر إننا منافقون؟

صرخوا جميعا في صوت واحد:

- منافقون، لا. إلا النفاق. ينقص أن يسمّي ذلك المصوّر المشهد باسم "أرض

النفاق"!! عشنا وشفنا، مصوِّرون آخر زمن. فلنتقن عملنا.

وأنزلوا أياديهم عند الموضع الذي من المفترض أنهم أوقفوا جرّ جسمي عنده،

وأعادوا رسم ملامح الجهد والتعب على وجوههم، دون أن يصدروا أصوات التوجُّع،

وعادوا بجسمي الافتراضي في هدوء وخفة إلى الدكة ووضعوه بهدوء فوق جسمي بالضبط،

وقالوا:

- ها نحن أتقنا أعمالنا. ربنا يبارك لنا فيها ويطرح فيها البركة. اللهم آمين.

نظروا إلى بعضهم البعض، كأنهم يتشاورون فيما سيفعلونه في الخطوة التالية. اختفى

أحدهم لثواني وجاء بقطعة فحم مطفأة من رماد النار التي نوقدها بجانب البيت للتدفئة أو

للتدخين. أعطى قطعة الفحم لأخيه الذي يكبره مباشرة وأشار بعينه نحوي. وجدّته يرسم

بالفحم خطأ من أعلى منتصف رأسي مارًا بأنفي وذقني وصدري حتى أطراف قدمي. بعدها

في منتصف البطن تماماً، أو بين صدري وبطني، رسم خطأ بالعرض. يبدو أن فيلم "آلام المسيح" يتم عرضه بالمقلوب. فبعد الغراب الذي يُفترض أنه في مشهد أخير يجيء التقسيم الصليبي. وما أن انتهى الذي يُفترض أنه أخي من رسمه حتى وجدتهم يرمون فوقى حبلاً ويضعون أطرافه أسفل جسمي وينخرطون في التشاجر فيما بينهم.

- هل أنا ابن البطة السوداء؟ كيف تقسمه على أربعة أشخاص فقط؟

- نصيبي سأخذه أولاً.

- أين العدل؟ هذا ظلم لا يصح بين الإخوة.

- وأما الراقدة في فراش مرضها، أتركها بلا نصيب؟!!

قال ذلك وهو يتقمص شخصية شخص حزين ومنكوب، ولكنه خرج من تقمصه بسرعة عندما رآهم يضحكون، وقال:

- أنا آسف. الواحد أمامكم لا يعرف كيف يعيش اللحظة. لم آخذ من قصص ذلك الذي يمثل أنه مريض وفاقد الوعي (وأشار إليّ) إلا التقمص.

أشار كبيرهم بيده له؛ فصمت. وتحرك الكبير نحو السور ووضع أذنه عليه وهو صامت وجاد تماماً، وبدا عليه أنه لم يسمع شيئاً، فلقد أشار بيده مرة أخرى وهو يبتسم إلى بقيتهم وقال:

- دعنا من التمثيل الآن. الموضوع جاد لا يحتمل أي تمثيل. الميراث شرع الله، وشرع الله واجب النفاذ.

ونطق الذال في كلمة "النفاذ" كاملة بدلاً من أن ينطقها "زايًا" وهز رأسه أثناء نطقها ورفع وجهه لأعلى لتبرز عيناه. وقال:

- هيا بنا نبدأ.

وأشار إلى أخي الذي كان الثاني، فقال:

- أنا أبنائي أكثر منك، كيف تأخذ نصيباً مساوياً لنصيبي؟

- أنا سَمَّيْتُ ابني على اسمه، وسأخذ فيه نصيبين، نصيب لي ونصيب لابني الذي سيرث الاسم.

- أنا اشتريتُ له قميصًا عندما دخل المدرسة الإعدادية.

- وأنا ذبحتُ له زوجَ حَمَامٍ عندما جاء بزوجته هنا لأول مرة.

- أنا قرأتُ له كتابًا، ومن قرأ وَرِثَ وَرَثَتَيْنِ. يا جماعة، أنتم مؤمنون وموحدون بالله، وأوّل آية نزلت على رسولنا الكريم آية "اقرأ".

- أنا أعطاني شقيقه لأتزوجَ فيها عندما رحل. والشقة ميراث، وما دامت لي فنصفه لي.

وصرخ كبيرهم فجأة طالبًا منهم السكوت، وقال:

- ما هكذا تُورَدُ الإبلُ، وما هكذا يُؤْكَلُ الأخُ. إذا كنّا نريد الأصولَ، فلنكن عادلين. الظلم لا يدوم.

تعلّقت نظراتهم به، فأخذ ينتقل بنظره من وجه إلى آخر، وشرّد بنظره بعيدًا، وكأنه يبعد عينيه عن عيونهم، وقال:

- إذا عدنا إلى البداية، ماذا سنجد؟ ولا أسألكم، وإنما أسأل نفسي. الكبير كبير. سنجد الكوب. والمنطق يقول إن الذي معه كوب يرث، والذي ليس معه كوب لا يرث.

تهلّلت وجوههم، ما عدا الأخ الذي كان الخامس. ولكنه لم يقل شيئًا. فقط طلب من أحدهم أن يساعده في نقل دَكَّةٍ من أمام البيت الجديد إلى تحت الشجرة. وسأل الرابع عن مكان النعناع. وبعدها دخل البيت القديم وجاء بككة الشاي وبعض الشاي والسكر والنعناع وأشعل النار ووضع الككة على النار بعد أن وضع فيها الشاي والسكر والنعناع. وكانوا جميعا ينظرون إلى كل هذا في صمت. وما أن جلس الخامس على الدكة تحت الشجرة حتى قال كبيرهم:

- من معه أكواب يرث إلا واحد.

نظر الباقون إلى بعضهم البعض، ولكنه تجاهلهم وأكمل كلامه وهو يشير إلى الذي كان الرابع:

- أنت أخذتَ حقَّ كاملا، ولا تسألني كيف؟ وسأفترض أنك سألتني وسأجيبك: أنت الذي عبرتَ اليومَ يا بطل وأنت الذي تطقَّستَ، ولا تنتظرُ عيناك إلى ما تمتَّع به إخوتُك. كما أننا عبرنا وتطقَّسنا في أيام الرُّخصِ.

فانسحبَ من أمامهم في هدوء، مع أنني بدأتُ أتذكَّر أنه يمكنه أن يعصف بالجميع في مثل ذلك الموقف. انسحب وجلس على الدكة بجوار أخيه، وبدأ يشربان الشاي في هدوء وصمت وهما ينظران نحونا كأن المنظر لا يستهويهما أو أنه غير موجود أصلا، مثلما يحدث في الأفلام عندما تتسلط الكاميرا على شخصية ما فتظهر الشخصيات الأخرى باهتة بجوارها، ولكنني لم أعرف إن كانا هما اللذان ابتعدتُ عنهما الكاميرا أم أننا نحن الذين صرنا في الظل.

قال كبيرهم:

- علينا أن نغسل الأكواب من جديد، ثم نضع فيها شايًا كما كان الشاي في الكوب الأول.

ونظر إلى الجالسين على الدكة والشاي بجوارهما. وضعوا جميعا الأكواب على جانب السور وخططوها ببعضها البعض كي لا يعرف أحدُ الأكواب التي كانت معه في الغالب. قال الثاني:

- هل من الأنسب أن نضع الأكواب فوق المكان الذي فيه الكنز بالضبط أم لا يهم موضعها؟

ردَّ عليه الثالث:

- هل هذا كلام؟ شغلْ مُخَّكَ. نضع كل كوب في موضع، ثم نمزج الأكواب مرة أخرى، وساعتها سيتوزَّع موضع الكنز على كل الأكواب ولن نضطر لأن ندخل في دوامةٍ لا طاقة لنا الآن بها.

صَفَّقَ الآخَرَانِ، وَيَبْدُو أَن تَصْفِيْقَهُمَا أَخْرَجَ الْاِثْنَيْنِ مِنَ الظِّلِّ عَلَى الدَّكَّةِ، فَشَجَعَاهُمَا بِتَصْفِيْقَتَيْنِ، ثُمَّ عَادَا إِلَى شُرْبِ الشَّايِ.

ذَهَبَ الثَّلَاثَةُ إِلَى حَنْفِيَّةِ الْمِيَاهِ وَغَسَلُوا الْأَكْوَابَ. وَعِنْدَمَا رَجَعُوا إِلَى جَانِبِ الدَّكَّةِ بِجَوَارِي نَظَرُوا جَمِيعًا إِلَى الشَّايِ عَلَى الدَّكَّةِ الْآخَرَى وَابْتَسَمُوا، وَوَضَعَ كُلُّ مِنْهُمْ كُوبًا عَلَى السُّورِ، وَأَمْسَكُوا بِالْأَكْوَابِ الْآخَرَى وَكَسَرُوهَا فِي الْمَكَانِ الَّذِي كَسَرُوا فِيهِ الْكُوبَ الْأَوَّلَ، وَتَنَفَسُوا بَارْتِيَا ح. وَأَمْسَكَ كُلُّ مِنْهُمْ بِالْكُوبِ الَّذِي وَضَعَهُ عَلَى السُّورِ وَتَحَرَّكُوا نَحْوَ الشَّايِ عَلَى الدَّكَّةِ الْآخَرَى. قَالَ كَبِيرُهُم لِلْاِثْنَيْنِ الْجَالِسَيْنِ عَلَى الدَّكَّةِ:

- الدَّكَّةُ لَا تَسْعُنَا نَحْنُ الْخَمْسَةُ. وَلَيْسَ مِنَ الذَّوْقِ أَن نَطْلُبَ مِنْكُمْ النُّهُوضَ لِنَجْلِسَ عَلَيْهَا. الْأَصُولُ أَصُولٌ، وَالْخَبْرُ الْيَقِينُ يَقُولُ إِنَّا سَنَطْلُبُ مِنْكُمْ شَيْئًا وَنَتْرَكُكُمْ عَلَى رَاحَتِكُمْ.

وَصَبَّ كُلُّ مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ كُوبًا مِنَ الشَّايِ. وَاتَّكَأُوا فِي وَقُوفِهِمْ عَلَى مَسْنَدِ الدَّكَّةِ وَأَخَذُوا يَرْتَشِفُونَ الشَّايَ فِي صَمْتٍ، وَالْآخَرَانِ كَانَا يَرْتَشِفَانِ الشَّايَ فِي صَمْتٍ، وَظَهَرَ كُلُّ فَرِيقٍ فِي ظَهْرِ الْفَرِيقِ الْآخَرِ. قَالَ الْأَكْبَرُ:

- نَشْرَبُ الشَّايَ وَبَعْدَهَا نَبْدَأُ الْبَدَايَةَ مِنْ أَوَّلِهَا.

فَقَالَ الْاِثْنَانِ بِجَوَارِهِ:

- عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ.

بَعْدَ أَن شَرَبُوا الشَّايَ، نَظَرُوا إِلَى بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ، وَقَالَ كَبِيرُهُم:

- هَيَا بِنَا نَبْدَأُ.

فَقَالَ لَهُ الَّذِي يَلِيهِ:

- كَيْفَ نَبْدَأُ وَنَحْنُ ثَلَاثَةٌ؟

رَدَّ الْآخِرُ:

- مع أن الثالثة ثابتة، كما يؤكّد المثلّ، نحن في حاجة إلى هذين الاثنين (مشيرًا إلى الجالسين على الدكّة) حتى يحلّل الله عقدة من أيادينا.

قال له كبيرهم:

- ينصر دينك. هكذا اطمأننتُ عليك. هيا بنا نلعب.

وتوجه ثلاثتهم إلى الاثنين الجالسين على الدكّة. وضع كبيرهم يديه على كتفيهما، فنظرا إليه نظرة فارغة، كأنهما لا يعرفانه ولا يفهمان سببًا لوضع يديه عليهما. ولكنه عندما سحب يديه من عليهما ومدّها أمامهما، وضعّا يديهما عليها وكذلك فعل الاثنان الآخران، وهزّوا الأيدي الموضوعة فوق بعضها البعض لأعلى ولأسفل وقالوا في نفس واحد:

- كلّوا بامية.

وتحرّكوا جميعا نحوي. فكّرتُ في أنني لو كتبتُ قصة عما يفعلونه لن يصدّقها أحد لأن ذلك الأحد سيظن أنها لا تتفق مع منطق الواقع وتخرق جميع قوانينه. لكنهم تحركوا نحوي ببطء كما في بعض الأفلام التي يتحرك فيها مجموعة من الشخصيات للقيام بمهمة بطولية ما أو بعد إنجاز هذه المهمة، وتقوم الكاميرا بتصويرهم ببطء وشموخ وتحذّر. قالوا جميعا بصوت واحد:

- هبّلا هوب، هبّ، هبّ، هبّ، هبّ

وعندما توقفوا، قال الذي كان الرابع:

- ما هكذا تُورّد الكلمة. نحن خمسة. لا بد من أن تكون الكلمة خمس كلمات. هيا بنا نبدأ.

قالوا جميعا:

- هبّ، هبّ، هبّ، هبّ، هبّ، هبّ.

وأضاف بعضهم:

- هبّ، هو اسمه راوي بن أم راوي

فصرخ الرابع، قائلاً:

- لا تذكرُوا اسم أم راوي. لولا صنائعي لكانت عصفت بنا جميعاً عندما هبَّتْ عاصفُها في المرة الماضية. والحمد لله أنها فانت على خير. من الأفضل لنا جميعاً أن نسترضي هذه العصافير والطيور.

وأشار إلى الشجرة. هزُّوا رؤوسهم بالموافقة، ونظروا جميعاً إلى أعلى الشجرة. وقال

الرابع:

- هُبِّي، لا تهَبِّي، هُبِّي، لا تهَبِّي، هُبِّي، لا تهَبِّي

وردد الباقون وراءه:

- لا تهَبِّي، لا تهَبِّي، لا تهَبِّي

قال الرابع:

- عُبِّي، لا تُعَبِّي، عُبِّي، لا تُعَبِّي، عُبِّي، لا تُعَبِّي

رددوا وراءه:

- عُبِّي، لا تُعَبِّي، عُبِّي، لا تُعَبِّي، عُبِّي، لا تُعَبِّي

قال الرابع:

- دُبِّي، لا تُدَبِّي، دُبِّي، لا تُدَبِّي، دُبِّي، لا تُدَبِّي

رددوا وراءه:

- دُبِّي، دُبِّي، لا تُدَبِّي، دُبِّي، دُبِّي، لا تُدَبِّي، دُبِّي، لا تُدَبِّي

قال الرابع:

- خَبِّي، خَبِّي، لا تَخَبِّي، خَبِّي، خَبِّي، لا تَخَبِّي، خَبِّي، لا تَخَبِّي

رددوا:

- خَبِّي، خَبِّي، لا تَخْبِي، خَبِّي، خَبِّي، خَبِّي. خَبِّي، خَبِّي، لا تَخْبِي، خَبِّي،
خَبِّي، خَبِّي، خَبِّي.

تكوّنتِ العاصفة التي هاجت من قبل في الموضع الذي كانت فيه أُمِّي، ولكنها انتقلت
إلى أغصان الشجرة ذاتها. وصرخ كبيرهم مخاطبًا الرابع:

- ما الذي فعلته يا عبيط؟ ما الذي فعلته؟ هل هذا الذي اتفقنا عليه؟ ألم نتفق على أن
من عمل عملاً لا بد أن يتقنه؟

قال الرابع منفعلًا:

- أنتم الذين أفسدتم الخطة؛ لماذا غيّرتم ترتيب الكلمات؟ ولماذا غيرتم عددها؟

لم تمهّلهم الطيور الاستمرار في الشجار، فلقد دوى صوت اصطافاف أغصان الشجرة
وصوت اصطكاك أجنحة الطيور، وكأن هذه الطيور لها أجنحة هائلة وتهمُّ بأن تكتسح كلّ ما
ومَن أمامها. وسمعتُ صوتًا جماعيًا هادرًا يصدر من أغصان الشجرة:

هَبَّا، عَبَّا، عَصَفَا

دَبَّا، خَبَّا، عَصَفَا

عَصَفَا، عَصَفَا، عَصَفَا

وخرجت الطيور من بين أغصان الشجرة وانتشرت في كل مكان حولنا. رأيتُ خمسة
غربان هائلة الحجم، تفوق النسور في الضخامة، وخطَّ كل واحد منها على كتف واحد من
إخوتي. ولم يستطع أي أحد من إخوتي أن يفعل شيئًا، ورأيتُ الرعبَ فظيعةً في أعينهم. لم
أستطع أن أحتمل المنظر وأحسستُ بشفقة مفاجئة نحوهم، فحاولتُ النهوض لكي أحاول أن
أفعل شيئًا لإنقاذهم مع أنهم لا يستأهلون شفقتي. ولكن الأحبال التي ربطوني بها منعتني من
أن أفعل شيئًا. صرختُ في الغربان وأنا أستجديها أن تبتعد عن إخوتي. صرخ في وجهي
غراب منهم وقال:

- اسكُتْ يا عبيط. شفقتُك عبطُ الآن. دعهم يتخبّطون.

فكررت الغربان وراءه:

- يا عبيط، دعهم يتخبطون، دعهم يتخبطون يا عبيط.

وما أن انتهوا من كلامهم، نقر كلُّ غرابٍ عينيَّ الذي يقف على كتفه نقرتين مباغتتين وسريعتين. وعادت الغربان إلى حجمها الطبيعي وإلى الشجرة وهي تردد:

عَصْفًا، عَصْفًا، عَصْفًا

عاصفاتٌ، عاصفاتٌ، عاصفاتٌ

مأكولًا، مأكولًا، مأكولًا

عَصْفًا، قَصْفًا، وَرَطًا

أَخَذَتِ الزرازيرُ تتبرَّز على إخوتي الذين كفُّوا تمامًا عن الصراخ كأن شيئًا لم يحدث. تقمَّص كل منهم شخصية ضريّر، مع أنهم عميان بالفعل بعد نقر الغربان لأعينهم، وقَلَّد كل منهم شخصًا يتعكَّز على عصاه، ويمد يده الأخرى للأمام، وكل منهم ينادي ويقول تقليدًا لفيلم "واسلاماه":

- "جهاد، أين أنت يا جهاد؟"

وسار كل منهم في اتجاه مختلف عن الاتجاه الذي سار فيه الآخر، ولكنهم عندما وصلوا إلى سور المنصرة القديمة أو سور الحمام القديم، قال كل منهم تقليدًا لأحد الأفلام:

- "لِفِّ وارجعُ ثانيًا".

وجرى كل منهم إلى أن اصطدموا جميعًا ببعضهم. وعندها قال كل منهم:

- هل هذا يُرْضِي رَبَّنَا يا جهاد؟! أين كنتِ يا بنتِ النَّاسِ؟

وحضن كل منهم الآخر كأنهم التقوا ببعضهم البعض بعد فراق طويل. وعندما تحسَّسوا أجسام بعضهم البعض، صرخوا جميعًا تقليدًا لأحد الأفلام أيضا:

- "اجر يا مجدي".

وهنا خرج الغربان بالضخامة نفسها وصكَّتْ أجنحتَها ببعض سبع مرات متتالية، ثم حطَّت على أكتافهم، فاستكانوا تمامًا. ودفعتهم الغربان بأجنحتِها نحو الدكة، فجلسوا جميعا عليها، ولا أدري كيف استطاعوا هم الخمسة أن يجلسوا على دكة واحدة تكفي ثلاثة أشخاص في الغالب. ومع أنهم بلا عيون، بدوا كأنهم ينظرون في الفراغ وعلى وجوههم ملامح لا مبالاة مستقرّة، كأنهم أموات بلا روح. وجاءت الزارزير وتبرّزت على رؤوسهم وأكتافهم، وهنا فقط حرّكوا أجسامهم وصاحوا مهلّلين وكل منهم يقول للآخر استبشارًا بتبرُّز الزارزر عليهم:

- ستكتسي يا ابن المحظوظة!!

وأخذ كل منهم يتحسّس ملابس الآخر ويتفحّصها وهو يبدي علامات إعجاب على وجهه. همسوا لبعضهم البعض بكلمات لم أسمعها، وبعد همسهم تبادلوا الأماكن على الدكة، وملّس كل منهم على ملابسه باستحسان، كأن كلّاً منهم يرتدي ملابس جديدة ويستكشف جمالها أو جودتها بيديه. وما أن رضي كل منهم عن ملابسه، همسوا لبعضهم البعض من جديد ثم رفعوا أصواتهم قائلين:

- ألن نبدأ؟ هيا بنا نبدأ.

ونهمضوا وتحركوا نحوي كأن عيونهم ما زالت موجودة. وهنا صدر صوت اصطكاك أجنحة الغربان، فعادوا إلى أماكنهم على الدكة، قائلين:

- يبدو أننا ليس لنا نصيب اليوم. الصباح رباح بإذن الله.

وأرجع كل منهم ظهره ليتكى على الدكة، وأسند عصاته المزعومة على مسند الدكة من وراء، واستغرق في النوم، كما بدا لي. وتحول منظرهم إلى الظلّ بالنسبة لي، وبرزت الطيور في المسافة الفاصلة بين دِكتي ودِكتهم.

حطَّت زرزورتان على جسمي على الدكة عند موضع الحبل الذي كان مربوطاً حول جسمي. بدا لي كما لو تحول منقاراهما إلى يدين لشخصين بارعين، وبدأ في فك الحبل بسلاسة. وما أن انتهيتا من فك الحبل، نقرت كل واحدة منهما أنفي سبع مرات، ثم انتقلت إلى

الخطوط التي رسمها إخوتي بالفحم من قبل على جسمي، وأخذت تمسحه بصدرها وكأنها تسبح في ماء فوق الخطوط بالضبط إلى أن انمحت الخطوط. وأحسست بأنه كما لو كانت في جسمي شروخ من قبل وبدأت تُلْتَم وتلتئم. شعرت ببعض الألم الخفيف الذي بدا لي كما لو كان يتحرك في جسمي مع الحركة البطيئة للشروخ وهي تردم الفجوات بين بعضها البعض.

حطَّ غرابان بجانبني على طرفي الدكة. ثم انتقلا إلى جسمي. لامس أحدهما بمنقاره وعينه موضع قلبي، ويبدو أنه أخذ يهمس بأشياء أو ينقل لي بعض الأشياء التي لم أفهمها، ولكنني أحسست بشيء يتغيّر داخلي، كأنّ همسه أو نقله أرسل إشارة بدأت في الانتقال إلى رأسي، وأحسست بكتلة غضب في عيني، تلقّفها الغراب الآخر ولضمها بإشارة أخرى، إذ كرر نفس حركة الغراب الأول، ولكن بعد أن أغمَضَ عينيّ، كأنه يخشى أن ينقرهما. أربني خيالي السينمائيّ، فالمشهد بهذه الطريقة يوحي بأن الغرابين يستحضران مشهد الغراب بين قابيل وهابيل ولكن في موقف معاصر لي، ومنطقُ هذا المشهد يقول بأن الغرابين يعلمان إخوتي كيف يدفنونني أو يحترمون موتي أو ينبّهانهم إلى ما اقترفاه في حقّي، ولكنني أدركتُ أن إخوتي عريان الآن ولن يروا شيئاً، وبالتالي فإن التعليم الذي ظننتُ أنه يستهدفهما ليس موجّهاً لهم. هل هو موجّهٌ لي أنا شخصياً؟ ما الذي يريدان أن يعلماني إيّاه؟ أذكر من قبل أن الغربان في "طقوس العبور" وفي "على أعتاب العبور" كانت تتكلم لي أو معي بطريقة فيها شيء من الوضوح. ومن المفترض الآن أن أجد هذا الوضوح. وابتسمتُ عندما وجدتُ الغرابين يعيدانني إلى الواقع بأن نقرا رأسي سبع مرات متتالية كأنهما ينبّهانني إلى شيء ما أو يدعوانني إلى أن أنظر للموضوع بعيون جديدة. أحسستُ بصفاء في عينيّ، وكأن بصري قوّي ولا حاجة لي لأن أذهب إلى طبيب ليضع لي مواصفات نظّارة جديدة.

نقر أحدهما يدي سبع نقرات ونقر الآخر يدي الأخرى سبع نقرات، وسحب أحدهما يدي نحو رأسي وسحب الآخر يدي الأخرى بالمثل، وأحسستُ بطاقة تسري في جسمي، طاقة أحسستُ بأنها سرّت في جسمي من قبل، ولكن لم أذكر متى أو في أي موقف، ولكنها طاقة لذيذة، إذا كان للطاقة أن توصف بأنها لذيذة، ووجدتني أنتفض وأمتلئ بقوة جديدة تفوق

قدراتي، فقفزتُ من على الدكة إلى أعلى السور وواصلتُ قفزي في الهواء إلى أن انطلقتُ في الغيط...

لم أستطع أن أنظر للوراء، لكنني شعرتُ بالامتنان للزراير، وفي الوقت ذاته حاولتُ أن أعتذرَ لها، فلقد كنتُ في صغري أدبح ربما أجدادها أو أجدادَ أجدادها، فلا أعرف بالضبط مُدَّةَ الجِيلِ عند الزرزور أو متوسط عمره، ولم يسمح لي البرزخ الضبابي بأن أتذكَّر آخر موقف لي مع الزراير قبل هذا الموقف. وشعرتُ بامتنان أكثر للغرابين، ولم أعتذر لهما على شيء، فهما صديقاَي منذ مواقف سابقة لي مع الغراب الأب. افتقدتُ الهدد، ولا أعرف إن كان في اللحظات الأخيرة مازال يراقب المشهد أم أنه نقل نفسه إلى مكان آخر... دقَّ جرس هاتفي.

الفصل الثاني

نعم. أدركُ الآن أنها زوجتي التي كانت تتصل بي، بالرغم من رنين الهاتف طوال تلك الأيام أو الأسابيع أو الشهور، لا أدري بالضبط. يبدو أنه عندما يصير الزمن كتلة واحدة، كالمكان الأصم في البرزخ الضبابي بلا أحداث قد تتكشف الروابط بينها، تفقد الحسابات معناها، ويصير دوران الأيام دائرةً بالمعني الحرفي، تنتقل من لحظة لتجد نفسك راجعاً إلى مبتدئها من جديد، مثلما كان إخوتي يعودون إلى بداياتهم العبثية في كل موقف ومشهد مما كانوا يفعلونه معي منذ قليل، كأن التحوُّل ثابتٌ، وكأن كوب الشاي – الذي ينتزعونه من يدك ويرتشفونه ثم يكسرونه لتنتثر شظاياه تحت قدميك – لقطةً مصوَّرةً بالفيديو لا تملُ إعادةً تشغيلٍ نفسها أمام عينيك، لكنها كانت في تلك الكتلة من الزمن لا تجعلك تبتسم أو تستعيد إحساسَ رأسِكَ بالترابط بين ما يعود من غيبته داخل تلافيفها – نعم، ها هي الجملة تعود: لم يكن الرنين يكشف عن أية دلالة لاسم المتصل، وكأن الاسم تحول إلى أرقام غريبة، أو أن نعمة الرنين التي أدركُ الآن أنني خصَّصْتُها من قبل لرقم زوجتي واسمها فقدت أصلها في رأسي وصارت مثل كل النعمات: متماثلة إلى حد الإبهام أو الإطناب، بلا تاريخ، بلا دفء، بلا روح.

ابتسمُ عندما يعود الاسم بكامل حضوره، تعود النعمة بمعنى يدق باباً موعِلاً في الذاكرة أعرف مكانه ولا أستطيع أن أصل إليه في الحال، ولكنَّ اكتشافَ مكانه حدثٌ في حدِّ ذاته يستأهلُ الابتسامَ والفرحةَ وصيحةَ الاكتشاف وسط هذا المشهد الكابوسي، وكأن الكابوس في حد ذاته مقدِّمةٌ للاكتشاف، للتواصل، للحضور المتزامن لكل ما يريد هذا الكابوس أن يقضي عليه، ها هو الاسم يتجلى لي بكامل حضوره وتألقه ويردُّني إلى ما لم يكن أمامي سبيلٌ للوصول إليه، للالتحام به، لما يربط تفاصيل حياتي...

خجلتُ من أن أردَّ على اتصال زوجتي، وربما لم أُرِدْ أن أُطْلِعَها على شيء كهذا وأنا أجري هكذا لاهئاً بين الغيطان، فلقد تركتها تتولى توصيل الأطفال للمدارس والقيام بكل شؤون الحياة في غيابي وجئتُ لأُمي لأطمئن عليها. ها أنا أتذكَّرُ: جئتُ للاطمئنان على أمي، وأنا واثق تماماً من أن زوجتي تستطيع أن تدير أمور بيتنا وأطفالنا ببراعة. ياااااااااا! كأنني

لم أرَ زوجتي وأطفالي منذ سنوات!! وأين أمي؟ هل رأيتهما عندما جئتُ لأطمئنَ عليها؟ لماذا لا أستطيع أن أتذكرَ أي شيء عنها في فترة ضياعي؟! ومنظرها وهي تقف عاجزة وحائرة أمام شطايا الزجاج منظر يوجع القلب ويعاودني الآن كسكاكين تقطّعي. ولكن هذا المظهر ذاته يوحى بالغربة، وكأنني كنتُ أتخيله. ولكنني سمعتُ أخي الرابع ينهي إخوتي الباقين عن ذكر اسمها أو ندائها! هل أخي هذا طبيعي؟ ما الحركات التي كان يؤديها بأصابع يديه وجعلت شطايا الزجاج تلتئم وتتصل ببعضها وكأن الذي انكسر يمكنه أن ينصلح؟ لا أظن أن أمي كانت ستسمح بحدوث أي شيء مما فعله إخوتي؟ هل كانوا يمنعونها من أن تأتي إلي؟ هل ما زالت مريضة ولم تستطع أن تتحرك لتأتي إلي وترى ما يفعله إخوتي؟ الحمد لله على كل حال، فمعنى أنني تذكرت زوجتي يقول بأنني سأذكر كل شيء بالتفصيل بالتدريج، وسأخرج من البرزخ الضبابي إن شاء الله...

لا أذكر أنني سريع الحركة هكذا، ولا أذكر أن قلمي تستطيع أن تقفز مسافة أضعاف المسافة بين قدم والأخرى عند أوسع مدى لهما. شكرت الغرابين في سرّي، فرحتُ بفقراتي وانقبض قلبي في الوقت ذاته. أحسستُ بأن شيئاً انكسر داخلي وبأن ناراً تشتعل. خيلَ إليّ بالرغم من بقايا ضوء الشمس بعد غروبها أن جسداً تشتعل فيه النيران يجري بين بيتنا وبيت ابن عمي.

أذكر قديماً، ولا أذكر إن كان حقيقة جسدية أم حقيقة شبحية، أن امرأة يقولون إنها ابنة خالتي أو عمتي تجري والنار تشتعل في جسدها، أكان ذلك يوم زفافها أم بعد ذلك؟ هل أشعلت النار في نفسها أم أن أحداً أشعل النار فيها؟ ربما كانت ترفض الزواج، أو يقولون إن شبحاً يسكنها رفض زواجها من ابن عمتها. ولم أستطع طوال سنواتي القديمة أن أعرف تفاصيل قصتها بالضبط، فكل شخص يروي حكايتها بطريقته، وفي كل مرة تختلف تفاصيل كثيرة من حكاية لأخرى، وكانت حكاياتهم تجعلني أحسّ بأن الواقع ليس له وجود، فتفاصيله مجرد حكايات يحكيها كل منهم بطريقته وربما لأهداف خاصة به، فهناك جزء واحد حقيقي: قريبة لي كانت النارُ تشتعل فيها. أما التفاصيل الحقيقية أو الواقعية للموضوع كله فلا سبيل

لمعرفتها، لأنها تختلف باختلاف الشخص الذي يحكيها أو يصفها. ولم أستطع أن أتأكد إن كانت قد أشعلت ابنة عمّتي أو خالتي النارَ في نفسها أم أشعلوها فيها أو أشعلها ذلك الذي يقولون عنه إنه شبح. ما بعد ذلك كله حكايات. ها هي رأسي صافية وتستطيع أن تتذكر وأن تفكّر. رحمها الله..

لم يكن جسد امرأة ذلك الذي رأيته أو خُيِّلَ إليّ أنني رأيته، واقعًا أو افتراضًا. كان رجلاً كأنه عامودٌ نورٍ من ذلك الذي كنا نسمع عنه قديمًا يخرج لك على الطريق أثناء سَيْرِكَ، وما أن تقترب منه حتى يجذبك إليه ويتحول إلى حُمارٍ يعلو بك ويعلو في عنان السماء لترى الحقول كلها حولك أشباحًا والسماء سوداء قبل أن تكون هناك كهرباء. ولا يمكنك أن تنزل من عليه إلا إذا كانت في جيبك مطواة، فتنغزه بها ويضطرّ إلى أن ينكمش ويعود حمارًا كما كان، وكأن الشبح يخاف من المطواة!! هل يعود ذلك إلى أن الحديد المصنوعة منه المطواة ليس من معادن الأرض وأنزله الله من السماء؟ كما يقول الله تعالى في سورة الحديد: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ" وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ". يبدو أن هذا هو التفسير الوحيد الذي يجعل الشبح أو الجن أو أيًا كان اسمه يخاف من الحديد. يبدو أن بأس الحديد فيه منفعة كبيرة. وهل يخاف الجن فعلاً من الحديد؟ أم أن خوفه هذا مجرد تفصيل من التفاصيل التي يضيفها رواة الحكايات؟ وهل ينفع الحديد في كل المواقف؟!

هل الذي جعلني أرى ذلك... ها هو السؤال يتوقف أو ينقطع، وسط الحقول في المنطقة التي كانوا يقولون إن عامود النور يظهر فيها، وربما أنا رأيته أحيانًا عندما يمتزج الواقع والخيال، أو الواقع الذي شَهِدْتَهُ والواقع الذي حُكِيَ لك عنه، لا تعرف إن كنت أنت حُكِيَ لك عنه أم شاهدته بنفسك. فيبدو أن الذاكرة تتحول مع مرور الوقت إلى برزخ ضبابي في جانب من جوانبها، عندما يتعلق الموضوع بموقف أو حدث قديم. ما السؤال؟ من ذلك الذي جعلني؟ وماذا فعل؟ ولماذا أبدأ في تذكر ما ضاع من الذاكرة ويضيع السؤال الذي أطرحه الآن قبل أن أتوصّل إلى نهاية له؟ وهل أنا الذي أسأل هذا السؤال؟ أم أن الذاكرة هي

التي تحكيه له وتتركني في منتصفه، كتلك الحكايات التي لا تعرف إن كانت أحداثاً رأيتها وحدثت لك أم حكاها أحدٌ لك أو عنك؟ يبدو أنه عندما تتباعد الأماكن وتتباعد الأزمنة في الذاكرة يصير المشهدان مشهداً واحداً، وتصير الأقوال أحداثاً حقيقية وتصير الأحداث كلاماً قاله شخص بلغة مبهمة، وربما قاله طيفٌ ما أو خاطراً ما، دون أن تستطيع أن تصل إلى حقيقةٍ أو واقعٍ أو برزخٍ صافٍ، وها أنا أتوغلُّ وسط المكان، ويُفترض أن ينفصل إلى مشهدين. ولكن يبدو أن المكان غير مكاني، وأن التاريخ يترك بصمته على روح المكان بحيث يُهيئُه ويبدِّل ذاكرته.

عاودني الإحساس بالانقباض وراودني شعور بأن أُمي ماتت، شعور غامض أخذ يُثقلُ خطوتي، يجعل خطواتي تننُّ وهي تسير على طريق نجاتها كأن برمجتّها تضطرب، فأمرٌ يدفعها للأمام، وأمرٌ يدفعها للوراء لا تستجيب له، لكنه يبلبل الأمر الأول، وكأنها تريد أن تدور في نفس المكان لتتجاوزَ سرعتُها إلى أن تصير صفراً. هل سرعتُها هي التي تصير صفراً أم ثقلها هو الذي يصير صفراً؟ أم أن زمانها يصير لا شيء إذا فكَّرتُ في التراجع خطوة للوراء؟ تفرُّ من رأسي ألف فكرة تدعوني للتقدم للأمام، لتختلطَ عليَّ المشاهدُ ويضطرب إحساسي بمكانٍ لم أخطُ عليه منذ ثلاثين سنة مثلاً، فالطريق الذي صرتُ أجيء منه هو ذلك الطريق المرصوف بجوار التُّرعة البحرية.

لم أكن أشعر بالخوف عندما كنتُ أسير هنا بالرغم من الحكايات والقصص والغيط الذي يتحوَّل كله إلى كومةٍ جِبرٍ بيضاء تماماً على ضوء القمر: ما أن تقترب منها حتى تبلعك الأرض كأنها ستغرسك شجرةً تعلو في أفق السماء لتتساقط منها دموعٌ تُبرِدُ نارَ كومةِ الجبر. كنتُ فقط أحسُّ باضطراب دقات قلبي، بوقوف شعري جلدي، لكنني من داخلي لم أكن أعترف بخوفي. فإذا اعترفتُ به سأموت في أية لحظة وسط حياة لا تعرف الكهرباء ولا تعرف سوى الشقاء والانتقال من أرض لأرض، لزراعةٍ أو حصادٍ أو مدرسةٍ أو تسوُّقٍ على الحمار من بلدة بعيدة.

هل ماتت أمي فعلا الآن؟ أم أنها ماتت منذ زمن مثلما لم أصدق أن أبي مات إلا بعد موته بسنوات في زيارة لي كهذه ماتت فيها أحاسيس كثيرة داخلي؟ هل قيل لي إنها ماتت أم أنني شهدت موتها أم أن القول والشهادة يتساويان في الذاكرة كغيرهما؟

حمدتُ الله أن أخويّ اللذين يسكن كل منهما في مدينة مثلي لم يأتيا بعد، فلو شهد أخي الأكبر ما حدث ما احتمل قلبه المنظر ومات غمًا أو حزنًا أو لامعقوليّة أو تشنّثًا، كأنه يرى تاريخه وما قدّمه وما ضحّى به في سبيل إحساس ذاتي بالمسئولية ضاعوا هباءً على أشخاص لا يستحقون شيئًا ولا يُقدّرون شيئًا.

وضعتُ يدي في جيبِي لأستخرج الهاتف وأتصلَ بهما وأقولَ لهما إنني لم أستطع المجيء إلى بيتنا في الميعاد الذي اتفقنا عليه للقاء هناك وسنؤجل الموعد إلى وقت آخر.

استغربتُ من وجود أكثر من غرابٍ واستغربتُ أكثر من خلطي بين الغراب والهدهد. أذكر قديمًا أن الهدهد كان مألوفًا، منتشرًا، متواجدًا بقوة أو بكثرة، وكذلك أبو العنز، ولكنه الآن انقرض، ربما من التجريف أو... هل لأنه كان يشارك جدّيًا في الحكم أو النقاش، في المشورة مع سيدنا سليمان أم أنه كان نشيطًا ودؤوبًا فتمّ القضاء عليه أو هرب هو يأسًا؟

أكثرُ من غرابٍ علامة خيرٍ وعدلٍ وحياةٍ. فأذكرُ في موضع ما أن الغربان كانت أمامي من النافذة شاهدةً على مَنْ ضحّى بدمه في سبيل الأرض. أذكر أنها في موضع آخر، لم يحتمل الغراب أن تُهدَرَ كرامة إنسان بعدم دفنه، فأواه التراب وسهر عليه. أذكر في موضع ثالث أن الغراب أطعمني ودلّني على الطريق، لكنه كان غرابًا واحدًا، وربما ظهر لي ساعتها من خيالي أو كان إلهامًا كالغراب الأول في "طقوس العبور"، لكن هذه الكثرة تُرجعني حريفًا إلى غربان تحرس الموتى، وتدل عليهم وعلى رحلتي وعلى... نعم، نعم، أذكر الآن غربانًا كثيرة كانت تداوي المرضى والجرحى والهاربين من الجحيم، وكنتُ بينهم، في تلك السنوات القليلة التي تلت "طقوس العبور"، كأني بعد أن عبرتُ عدتُ من جديد إلى نقطة الصفر، ثم إلى ما قبل الصفر، ووقفتُ حائرًا "على أعتاب العبور!!" لماذا

كان إخوتي يصرون على إفساد معنى العبور؟ كانت طقوس عبور رابعهم هزلية وأسطورية وملئمة بالألغاز والرعب القذر. هل هناك رعب نظيف؟ مثل اللعب النظيف، اللعب العادل؟! أحسُّ الآن بأن طقوس رابعهم طقوس سحرية شريرة، وأن الرعب النابع منها رعب فجٍّ، بلا رؤية ولا هدف نبيل ولا استكشاف لغابات الروح.

ما هذا؟ رائحة هواء ثقيل كأنني أشمُّ رائحة الموتِ من أعلى قلعةٍ تتشكّل ملامحها الآن في رأسي، لكنني لا أذكرها. نعم، قلعة صلاح الدين الأيوبي أو قلعة محمد علي، لا أذكر بالضبط، القلعة الموجودة في منطقة القلعة بالقاهرة القديمة، وأنا أحضر مهرجان القلعة للموسيقى والغناء وأشمُّ هذه الرائحة داخل القلعة في أحد جوانبها، في الغالب في منطقة كواليس الفرق الموسيقية التي تكون حاضرة في المهرجان. وربما كانت الرائحة تنبع من المقابر التي لا أذكر إن كانت هي "ثُرب الغفير" أم لا، تلك المقابر الموجودة في مصر القديمة، وتنزل من الشارع الرئيسي بعد حديقة الفسطاط تقريبا، وتتجه يسارا لتسير بين المقابر إلى أن تصل إلى مسجد السيدة نفيسة. هواء ثقيل ربما ليس معطّنا، ولكنه أشبه بالعطن، أشبه بقرية كنتُ أعمل بها مدرّسا ذات يوم، لا أذكرها أيضا، كان بها مصنع... لستُ أذكر... مصنع تفريخ؟ دواجن؟ أعلاف؟ كان هواؤها دائما ثقيلًا وبه رائحة غريبة. نعم. مدرسة الشيخ عثمان بالجيزة، على طريق الحوامدية. كنتُ أرى الهواء الثقيل باديا على وجوه أهلها كل صباح أثناء خروجهم نحو الطريق الرئيسي ليذهبوا إلى أعمالهم أو جامعاتهم أو... أو...

هل هو موتٌ ذلك الذي تنتشر رائحته؟ وأين هواء جهينة وأشجارها وحقولها إذن؟ وماذا يفعلون؟ لماذا يتركون هذه الرائحة ولا يقضون عليها؟ وما بال هؤلاء الإخوة الذين كانوا يتحدثون كأنهم إذا قتلوني سيرثونني؟ من الذي سيرثني إذن؟ نعم، نعم. زوجتي وأطفالي.

وبالرغم من أنني متأكد تماما الآن من زواجي، يبدو كصورة ضبابية، فكرة تختلط مفاهيم تراكيبها ببعضها البعض، فلا يتضح أمامك إن كنت قد فكرت في الفكرة وتخيّلت تحقيقها، فسجلتها ذاكرتك على أنها محقّقة، أم أن الفكرة انعكاس لواقع قائم بالفعل! أذكرُ

الواقع القائم، ولكنه يتبدى الآن في رأسي ك فكرة أو كلمة مُبهمّة لا أعرف ملامح ما تدل عليه بالضبط. كأنني لم أرَ زوجتي وأطفالي منذ فترة طويلة، وكأنّ صُورَهم ضبابيّة أمام عينيّ أحاول أن أستخلص منها ملامحهم، فتعاندي وأشعر بألم في رأسي أو بسخونة كسخونة الدم. أتحمّسها. لا شيء. زوجتي نعم. كانت تحسُّ بألم الدورة في موعدها بالرغم من حملها، وها أنا أحسُّ بألم في رأسي كأنه الحقيقة، ربما يعاود ذكرى ما، خبطة ما، نزيف ما، سقوط على الأرض، لا أذكر. لا أذكر. ...

زوجتي وأطفالي وأمي، أمي، نعم، أمي، كانت في كامل عافيتها، كانت ما زالت تمشي، تتكلم، قالت لي إنها تطبخ لنفسها، مازالت بصحّة تمكّنها من أن تطبخ لنفسها وتغسل ملابسها، وها هو صوتها يهتز أمامي الآن في رأسي كأنني لا أستطيع أن أستنبط نبذة صوتها، وتنضمُّ صورُها مشوّشةً إلى صور أطفالي وزوجتي، على طريق الهروب والنجاة...

ليس هاتفي في يدي، كأنه ضاع وسط الغيطان، أو أن مروري بهذه الغيطان أرجعني إلى مروري بها قديمًا عندما لم تكن هناك كهرباء ولم يكن هناك هاتف أرضي أو محمول، وربما وقع مني في هوّة زمنيّة عندما قفزتُ، وربما لم أنتبه إلى أن ذاكرتي عاودتني. بلا حقيبة سفر. بلا هاتف. وذاكرتي مشوّشة. هل أبكي أم أضحك؟ وأرتدي ملابس الشتوية!! ابحث يا رجل في طيات ملابسك، طيات!! في جيوب ملابسك الثقيلة في ذلك الربيع الذي جنّت فيه وها هو يتحوّل إلى شتاء!

إن كانت ذاكرتي قد عادت، فيفترض أن يكون الوقت ربيعًا. وهل فقدان الذاكرة يجمّد الوقت؟ كتلة زمن تهيم في رأسي، كأنني رأيتها منذ وقت قريب، أو ربما راودتني. وهل إحساسي بالمكان دون الزمان يمنع الشتاء؟ جيوبي مليئة بكل شيء، كأنها حقيبة سفر، أو كأنني كنت أخشى من السطو على متعلقاتي فوضعت كل ما هو قيم منها في جيوبي. بطاقة هويتي. حافظة نقودي. سماعة هاتفي. ليس هاتف واحد. هاتفان! هاتفي الحديث وهاتف من النوع القديم بكشّاف نور. سأعطي به إشارة في هذا الظلام لتنبيه الهواتف على الطريق. لن

أضحك في هذا الجوّ. فربما أتحوّل إلى عفريت أو تلبسني العفاريت! نعم، نعم. إنها الكهرباء. أذكره جيدا الآن. أحضرته لي زوجتي عندما بدأت الكهرباء في الانقطاع كثيرا، كأن المسئول عن تشغيلها يقطعها طوال حياته الصيفي والشتوي، طوال غيبوبته وعشقه للظلمة.

فَشُّ يا رجل في جيبك. لماذا كنتُ أرتمي ملابس الخروج وأنا جالس على الدكّة في بيتٍ يُفترض أنه بيتي، حتى ولو كان بيتًا غير دائم؟ لا، يُفترض أنه دائم، فهو الأصل والموطن والجذر. ومن قال لك إن الجذور لا تشيخ، لا تلفظ المتعلقين بها، الدائرين حول منابع الحنين؟

سكني ليس هنا، لكن بيتي هنا، وهنا تكمن المشكلة. أي مشكلة؟ نعم، ها هي الذاكرة تلقي لي خيطًا، خيط لا يفك المعضلة، لكنه يجعلك تتأرجح بين الانتماء والتمرد، بين منبعك ومكان سريانك، فالمصبُّ يتوزّع على المنبع والسريان والأماكن التي تقابلك في طريقك، على البيت والمسكن والرؤى التي تريد أن تصبّ في أيادي أجيال قادمة. فكيف بعد كل ذلك أقفز من فوق سوره هاربًا؟!!

يراودني هاجس في شكل أغنية تُدندن في رأسي بأنّ أحدًا سيوقفني على الحدود ويسألني عن أوراقي وعن هويتي وعن نشأتي، وفي الأرجح سيمنعني من الخروج، ولا أعرف لماذا التحمت فكرة الخروج بآلام المسيح بالهجرة النبوية بالهوية بالملك أوديب، كأني على مُفترق طُرق؛ والحمد لله أن أبي مات وأمي يبدو أنها ماتت، ولم أقتل أبًا لي ولم أتزوج أمًّا لي. نعم!! أمي ماتت؟! سمعتُ "أما الراقدة في فراش مرضها" ولم أستطع الدخول إليها. لم أستطع الدخول إليها، أمّ لم أرها بطول تلك الكتلة الزمنية وعرضها؟ هل كنتُ أتخيّلها عند حدّ الزجاج المكسور الذي فرضه أحد إخوتي أمام البيت القديم؟! آآآآه!!

ما هذا؟ ها هي ذاكرتي تلقي في طريقي مفتاحًا: مكالمة. "ضرب أمك". سيارة أجرة. دم. شجرة التين. صورٌ تتداخل. صراخ أمي. صورٌ تغيب. لا، لا تغيب. تفقد معناها. تراها عيني فلا أفقه لها معنى. لا، أفقه لها مغزى، لكنه غير محدد، صور مبهمة، أشخاص كأني

أعرفهم، أنظر لهم كأنَّ حاجزًا ينفرد على ملامحهم فيحجب وجودهم، وإن كانوا يرسَّبون في عيني غُصَّةً، وفي قلبي ثورةً لا تخرج أو تعصف بهم، يا غريب، كان غريبًا سمعتُ صوته كأنه قادم من أحراش التاريخ، كان صوتًا يبدو كما لو كان يملأ واديًا بأكمله لا يسكنه أحد سواه، لا، كان مليئًا بالأجسام، لكن كل جسم كان يهيم على غربته وفي غربته وإلى غربته، كالأرواح المشرَّدة في فيلم شاهدته، لا تستطيع أن تحدث أحدًا ولا يراها أحد، وجود حقيقي يشبه الافتراض ووجود افتراضي كأنه الواقع.

وجدتها! نعم، نعم. كان صوت امرأة كالوطن، الوطن الصغير أرض أبي الضائعة، أو الوطن الأكبر منها الضائع على يد سارقي بصمات المكان. كان صوتها عميقًا مفعماً متوجَّعًا متأوِّهاً، ها هي أصدااء صوتها تتردَّد في أذني:

يا غريب ما الذي جاء بك إلى هذا الحجر؟!

ما الذي رمى حُمُولَ العصرِ عندك واحتضر؟!

لا تقل أنتَ الذي جنيتَ يوماً يا بشر

قل إنك هنا

ستجيب يوماً إلى هنا

ستعزف يوماً نغم الياسمين يا فتى

فهيا استبشرْ

هيا استغفرْ

هيا تعالْ شُدَّ معي

عزيمةً أوتارٍ تَرْتَخِي.

منظر كأنه الخيال، كأن كل غربان السويس تجمَّعت لتحياي ذكرى استشهاد عشرات النعوش، وربما المئات، القادمة على الطريق لتدخل القرية أو البلدة. يراودني حدسٌ أتيقن من أنه حقيقة بأن المقابر في الاتجاه الآخر، لكن حُرمة الموت لا تسمح لي إلا بأسئلة محددة:

- ما الذي حدث؟

سؤالٌ قد تستخرج به دمة من عين، أو عبارةً تكتم على أنفاس مكلوم، أو جملةً غضبٍ تكاد تنفجر في قلب.

- القطار

كلمة واحدة تكررت ببطء...

- دهسهم القطار أثناء رجوعهم من المدرسة.

كانت الشمس قد غربت، وهذه الأعداد لا تتجمع إلا في أتوبيسات المدارس الخاصة، وأعرف أن المدارس الخاصة لا تعمل لفترة مسائية. يبدو أنني بدأتُ أخرف. هل هناك مجال للتفكير المنطقي أمام الحزن؟ ياااااااااااااا. تراودني أغنية قديمة ربما عن "بحر البقر"، عن الأطفال الذين كانوا يحملون ألوانهم، يحملون كُرَّاسَاتِهِمْ، ولم تنبِقْ إلا بُقع دمٍ للكراسات شاهدةً على انعدام الضمير، اللامبالاة، الغدر... شاهدةً أيضا على حكومة ربما تُشعل النار في بلد كاملٍ تسلية أو تُغرق عبَّارة لتثبت لنفسها أنها لا شيء يهتمها لتفرح بمباراة بعد إغراقها، أو لتحتمل بنصر كروي كأنها ترتدي كل الأقنعة وتجسد كل الحياة، كأن سلطتها لا ينقصها إحساس، كحكومة تترك بلدًا يجف وتحتمل على الشاشات بانتصارات وهمية وسلطة كأنها الخراب، حكومة تتنصل من المسؤولية، كالكاذب والسَّفَّاح الذي يتنصل من جرمه بالقسم بأغلظ الأيمان. مجزرة بالتأكيد.

هل أرجع مع هؤلاء الذين يحملون النعوش بالرغم من أنني لا أعرف وجهتهم وأعرض نفسي لإخوتي؟ أم أترك الغربان ورب الغربان يحرسون أرواحًا ترتقي بخطواتها إلى سلم الجنة؟ هل أترك غربانًا تحرس أجسامًا إلى أن تنبت من جديد لتطيح بكل فاجر وجشع وطَّماع؟

ومع ذلك، تكادُ رائحة الموتِ أو الهواءِ الثقيلِ تتجسَّدُ في طبقة سميكة تسدُّ مسارَ الهواءِ نحو رئتَيَّ ومسار الدم نحو قلبي، وتوحي بأن الموت سيد الأدلة، سيد الأدلة، أين سمعتُ هذه العبارة من قبل؟ الموت سيد الأدلة، لكن موتانا على يد أولئك العسكر أخذوا دليلا

ضدنا. قصيدة ربما. قصيدة، نعم، قصيدة: الموت سيد الأدلة، جثث، أشلاء، أناس يتراقصون، نعم جماعة تتراقص فوق الأشلاء، ولا يهم إن كان الراقصون جنودًا أم جماعات:

الْمَوْتُ سَيِّدُ الْأَدِلَّةِ،
لَكِنَّ مَوْتَانَا عَلَى يَدِ أَوْلَيْكَ الْمَعْسُولِينَ
أُخِذُوا دَلِيلًا ضِدَّنَا:
فَمَا دُمْنَا مِنْهُمْ
أَوْ مَا دَامُوا مِنَّا
هَكَذَا يَقُولُونَ
لَا بُدَّ أَنْ نَتَّوَحَّدَ مَعَهُمْ،
وَلِذَا قَرَّرُوا إِبَادَتَنَا
لِيَتَّسِعَ الْمَكَانُ لَهُمْ
فَيَنْتَشِرُوا بِالرَّقْصِ عَلَى أَشْلَانِنَا!
الموتُ سَيِّدُ الْأَدِلَّةِ
ونحن دليلٌ مقلوبٌ
ينقلبُ علينا ساعة إسْدَالِ الستار
وعلينا أن نصِفَّقَ لبراعة التمثيل
وعلى صفتائنا أن تلطم خدودنا
وتقودنا إلى جزارة المجانين!!

منهم ومنا، منا ومنهم. أهلا بك يا أصالة نصري، أكانت تلك الأغنية: "أنا منكم وانتو كمان مني/ عشانكم طول عمري بأغني/ وعشانكم هسهر لياليا/ وأهديكم من عمري وفني؟" "قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار". بحيرة البجع. "كهرباء السد لا تمثل سوى 1,2% من احتياجاتنا". الموت سيد الأدلة، لكنَّ هذا الموت الذي أشمُّه وأراه الآن يطفح في الهواء

كَوَبَاءَ، كَطَاعُونٍ سَهْلَتُهُ بَلَيْمُونِي، لِيْمُون لَكَ وَلِيْمُون عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَأْخُذَ حَذْرَكَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ قَادِمَةٍ.

آه يَا مَأْسَاةَ اللَّيْمُونِ وَالظِّلِّ الَّذِي بَلََا جَسَدًا! لَقَدْ سَمِعْتُ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ، أَوْ رُبَّمَا خَطَرَ لِي. كَانَتْ الْأَرْوَاحُ تُسْفَكُ كَمَا الرِّقْصُ عَلَى الْأَشْلَاءِ، لَكِنْ الْفَاعِلُ هُنَا وَالْفَاعِلُ هُنَاكَ يَتَوَحَّدَانِ فِي دِهَالِيزِ الصِّفَقَاتِ الْمُخْمَلِيَةِ لِيَفْقِدَ اللَّيْمُونُ مَعْنَاهُ وَيَصِيرُ حَرِيقًا أَوْ أَرْضًا مُحْرَقَةً كَالضِّيَاعِ، نَعَمْ، هَا هِيَ الْكَلِمَاتُ تَتَرَدَّدُ فِي أُذُنِي كَالْمَوْسِيقَى بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا تَخَاصِمُ مَوْسِيقَى التَّهْوِيمَاتِ وَأَوْهَامِ الْخِلَافَةِ... مَاذَا؟ شَيْءٌ أَقْرَبُ لِكَلِمَةِ decoy، إِغْوَاءُ! مَصِيدَةٌ! تَضْلِيلُ! خَدَاعُ! وَرُبَّمَا كُلُّ هَذَا. اصْطِيَادٌ بِالْوَعْدِ! تَفْخِيقُ الْوَعْدِ! الْاِحْتَوَاءُ الْمُهْلِكُ! الطُّغْمُ الْبَرِيءُ!

وَجْهٌ جَامِدٌ

إِصْبَعٌ يُصَادِقُ الْأَنْفَ

مَعَاصِرُ لِيْمُونٍ تُغْرَقُ الْأَرْضَ:

"لَا لَوَجْهٍ أَدْمَى الْأَرْوَاحِ".

لِيْمُونٌ يَتَحَوَّلُ عِلْقَمًا

أَيَادٍ تَتَقَلَّبُ عَلَى وُعُودِهَا

أَرْوَاحٌ تَنْزِفُ

أَرْوَاحٌ تُسْفَكُ

رَغِيفٌ ضَائِعٌ

أَمِنْ كَامِيرَا خَفِيَّةٍ

حُرَّاسُ حُدُودٍ يَسْتَبِيحُونَهَا

وَجُوهٌ جَامِدَةٌ تَصْطَبِغُ بِلَوْنِ الْأَرْضِ

سَوْلَارٌ مَسْكُوبٌ يَنْتَظِرُ كَبْرِيئًا

دَائِرَةٌ مَفْرَغَةٌ

لِيْمُونٌ يَلْعَنُ نَفْسَهُ

لِيْمُونٌ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لَيْلَ نَهَارٍ

يرجوه أن يبرأه من دم سفكه حبر فسفوري
وجه جامد تنفك أساريه

يبتسم

يشير لأنصار وهميين أو حقيقيين
ويسدل الستار على الفواصل
ليتواصل عرض مأساة الليمون
والظل الذي أخلف وعده
وأحرق حقول الليمون
كي تشتعل نار
تثبت أن الظل حقيقة
وأن الوهم نهضة
وأن الحرائق التهمت كل الوعود
فلم يتبق شيء ليفي به.

~~~~~  
فلتذهب إلى الجحيم يا ابن الليمون. كيف لك تحوّل دواءً إلى سمّ ورصاصٍ

وقنابل غازٍ وقطاراتٍ تحصد الأرواح وحدودٍ تُسبّاح:

يا ابن الليمون،  
ليمونة كانت لك لم تصنّها  
ولم تُداو بها وطنًا  
ستكون الليمونة الثانية لي  
أعصرُ بها على ضميري  
لأعصف بتسلّكك على جذوع أبناء الأرض،  
ليمونٌ بليمونٍ والمباديرُ أوطُن  
فلتهنأ بليمونٍ لم تصنّه  
ولنلتق في معصرة الوقت ومفرمة الطفيليات الغادرة.

كيف لك أن تفصل شجرة الليمون عن شجرة التين وتقول: "اقرأ كتابي"؟ كيف لك أن تتودد للليمون ثم تمتص دمه وتقول إنك تمتص الصدمة؟ وأخُ يسَّج شجرة الليمون كأنها لا تلتحم بروح الأرض ولا تُأخي التين. ما قبل المجيء. قبل أن يتكتل الزمن. الحمد لله. الصور تتزايد ترابطاً في رأسي. إنها تلك الصورة للليمون ثالث، كأن الليمون زيتون وتين. مسافات ليست كالمسافات، "كلمات ليست كالكلمات"، كيلومترات تظن أنك تقطعها، فتكتشف أنها تريد أن تقطع قدمك من على أرضك، أن تقيم جداراً يريد أن ينقضَّ وتَحْجُرَكَ خارجه...

تفصلني الكيلومترات عن شجرة الليمون. لكن المسافات لا تستطيع أن تحجب نظرتها. أراها على البعد تعاتبني. وأشواكها تكاد تلين من دموع أو أسى أو انتكاس أو استنجاد. سور من بوص يمتد حولها ليفصلها عن شجرة التين، عن أحاديثهما المشتركة، عني وعن أخوي المغتربين اللذين قطعهما السور عن الأرض والمكان وروح النبات. لا أدري إن كنتُ أنا الذي أنظر إليها أم هي التي ترنو إليَّ!! فها هي عندما تكتشف نظرتي، تنضو أوراقها، تنصب أشواكها، تكشف ليموناتها، لتظهر أمامي كما كانت قبل أن يقطع سور نصبه أخي خطوات قدمي. أمسح دمعاً لا تحتل المعنى، فليمونتي ستموت إن خرجت من تربة اقتطعها لصوص المواريث، وأنا إن خطوت نحوها سيقطع اللصوص قدمي وسيتحول سور البوص برغم ادعاء الفقر إلى سور اسمنتي حديدي شاهق تسري فيه الكهرباء وأسلاك قطع الرحم، وتدقُّ على بابه طبول آذان لا تستمع إلا إلى فحيح أيادٍ لا تعرف إلا أن تزرع الفرقة...

أنتفض، فلا أعرف كيف أسترُدُّ حقاً ولا أعرف كيف تعلو لغة الليمون في رأسي لتصير شجرة تضرب بجذورها في ورقة وقلب وعقل يقيمون لها وطناً بديلاً يأويني ويأويها، بدلاً من هذه الغيطان التي تنبت فيها الأشباح، وتفرز أوراق أشجارها رائحة الموت والثقل والعطن والنتانة والهواء الثقيل!

\*\*\*

نظرتُ للوراء. صحتُ بأعلى صوتي منادياً على أولئك الزاهيين بأولادهم في نعوشهم نحو الداخل بعيداً عن المقابر التي في غرب جهينة، كما صرتُ أذكرُ بوضوح:

- أبناؤكم ميتون يا أهلي!

ماذا؟ سحبتُ كلمة أهلي بسرعة، فلا مجال لأهل ولا لعشيرة ولا لكل الكلام الذي لا يُشبع فمًا ولا يُصلحُ سَكَّةَ حديدٍ ولا ينظّف مكانًا قدرًا. وفي الوقت ذاته أحسستُ بثقل كلمة "ميتون"، كأن تقول لشخص "أنت ابن أمك" أو "أنت حيوان"، فبالرغم من أن التعبير في حد ذاته صادق ولا يحمل دلالة سلبية، ينظر إليه الناس على أنه يحمل قدرًا كبيرًا من الإهانة. هل كان الموت سلبية؟ أم أنه كان اتّهامًا لهم بأنهم تركوا أبناءهم يموتون دون أن يثوروا أو يفعلوا شيئًا؟ استدركتُ وقد صرتُ بجوارهم:

- هل أبناؤكم أمواتٌ أم أحياء يا رجال؟

توقّفوا، فخطوتُ نحوهم:

- ألا تشمّون هذا الهواء؟ كيف تريدون أن يصعد أبناؤكم إلى الجنة وهواءٌ عطِنٌ ننثُنْ ثَقِيلٌ يملأ رئاتهم؟! هيا نخرج جميعا إلى مكانٍ خارج هذه القرية. المقابر هناك، والهواء الجبلي لا يُبقي للرائحة الثقيلة أثرًا.

صمتوا للحظات، كأنهم يتدبّرون كلامي أو يفكرون فيما سيفعلونه. ويبدو أنهم يستجيبون وأقدامهم تتسارع على الطريق أمامي، فها هم يطيرون في الهواء، كما لو كانوا في مشهد يجمع بين الفانتازيا والثورة. دخان. قنابل غاز. ثوَار يتطايرون في الهواء، ليس أَلَمًا أو إصابة، بل رقصًا، فرحًا، تطايرًا يوحي باستمرار التمرد والتحدي والوقوف أمام الموت لتأكيد الحياة، كأولئك الذين يتحدون الحصار والبلطجة والهجوم على اعتصامهم بموسيقى زوربا وعشقه للحياة والرقصات التي تستخرج دفقة الحياة من الأجسام التي تقاوم الموت والموات.

استعذتُ بالله من الشيطان الرجيم وقلتُ لهم:

- قدّر الله وما شاء فعل يا جماعة.

ولكنني سحبت عبارة "يا جماعة"، بسرعة، ولا أعرف لماذا، ولكن يبدو أن الجماعة لها قصة معي، وبالتأكيد سأتذكّرُها فيما بعد، وكررتُ:

- قَدَّرَ الله وما شاء فعل.

قال أحدهم متجهماً:

- نعم، قَدَّرَ الله وما شاء. كُلُّ مَنْ يموت في عهد الرئيس المؤمن موته قضاء وقدر.

قلتُ لهم وأنا أحاول أن أبدو جاداً تماماً، وأنظر إلى ملابسي الشتوية أيضاً:

- هل أكمل عامه الثاني بنجاح؟ يبدو أنني كنتُ نائماً قليلاً ولم أشاهد البرنامج. البقاء لله.

قال بعضهم:

- سيكمل كلُّ أعوامه إن شاء الله.

وأكملوا طريقهم وهم يسارعون الخطى كأنهم يتوجَّسون من وجودي ذاته. لم أستطع أن ألحق بهم، ربما لأن وعيي كان في بداية الخطو، أو أن ثورتي كانت قد بدأت للتو في النهوض من مَرَقَدِ إفقاد الوعي وما زالت تتدبر خطواتها، أو ربما لأن الفرار بالحياة وإليها كانت الخطوة الأولى لديّ لزرع هذه الحياة.

كنتُ أدرك أن الخروج من هذا الهواء الثقيل ورائحة الموت، التي يزرع بها أهل المكان الأرضَ بدلاً من الخضرة، كان يقود في النهاية إلى المقابر ربما للتصالح مع الأجداد والشهداء وبعدها الانطلاق بعيداً للتأهل لزراعة الحياة.

نزلتُ دمعة من عيني وارتسمتُ بسمَةً حائرة على شفتيّ لم أستطع أنا شخصياً أن أفهم معناها أو مغزاها. لكنها كانت بسمَةً تقف على حد فاصل بين الفرح والحزن، كأنها لم تستطع أن تحدد خطواتها بعد، أو كأنها تتدبر خطواتها القادمة كي تفعل شيئاً مؤثراً يبرد قلوب أولئك الآباء والأمهات الذين هدأتهم فكرة الجنة مؤقتاً بالتأكيد، ويبدو أن "الرئيس المؤمن" قال لهم شيئاً طمأنهم، ولكنهم في الغد على الأكثر سيفكرون فيمن قتل أبناءهم وبناتهم، في المسؤولين عن هذا الانفلات أو التسبب أو الإهمال أو... سمّه ما شئت... وسيحسُّون أنهم تناسوا دمهم أو باعوه، أو وقفوا على الحياد، إلى أن طال القتل أبناءهم،

وربما كوّن الإحساسُ مبدأً يحدّدون على أساسه حركة أياديهم التي بإمكانها أن تصنع شيئاً، أن تغيّرَ وضعاً، أن تقف قبل كل شيء موقفاً من ذاتها...

كيف أتركهم يسировون إلى حتفهم هكذا؟ كيف ستنبئ هذه النعوشُ في هذا الهواء الثقيل العطن؟ لا بد أن ألحق بهم، فربما استطعتُ أن أقدمَ لهم شيئاً، بالرغم من أنني "عيّانٌ" وهم "ميتّون"، وماذا يستطيع أن يقدمَ العيّانُ للميتّ؟!!! هي محاولة، وربما أنبئتُ شيئاً خارجَ هذا العطن...

\*\*\*

سحبني أصحاب النعوش البيضاء معهم، كأنهم قيّدوني أو سبّوني أو سحروني أو نوّموني مغناطيسيّاً لأتحركَ وراءهم كالمجذوب أو المسحور أو الذي يسير نائماً. استعدتُ بالله. لم يحدث شيء. وحدثُ الله. لم يحدث شيء. كبرتُ، حمدتُ، سبّحتُ، دون أن يتغيّر أي شيء. أخرجتُ الكلمة من فمي عالية:

- انصرفوا.

ضحكوا كلهم، وصحا الأطفال الذين كانوا من المفترض أنهم ميتون في النعوش، وأخذوا يتراقصون على صدى الضحكات ويشيرون إليّ ساخرين مستهزئين:

- انصرف أنت. ما الذي جاء بك إلى بلدة الأشباح أيها الآدمي الغريب؟! هي بلدٌ يسير فيها الموت على قدمين، علمها كفنٌ أبيض، وتاجُ عُمَدَتِها نعشٌ. رؤساء مصالِحها حفّارو قبورٍ. وأعضاءُ أحزابها مساعدو حفّاري القبور. أتظن أن غضبك وصوتك العالي وأنت تقول "انصرفوا" سيجعلاننا نترك هذه الأرض؟! اغضب كما تشاء أيها الحالم، فأنت لستَ رائعاً عندما تثور. لستَ سوى صاحب كوب زجاجٍ تتناثر شظاياه تحت قدميكَ وأقدام رفاقك لتتغرّز في أقدامكم!!

أقسمتُ لهم أنني لم أحطّم كوب الشاي إلى شظايا، فكيف أحطّمه وفيه نعناع من غيطي؟ أين غيطي؟ وفيه ماء من تحت الأرض أحضرته من الموتور الكهربائي الخاص بنا المتصل بماسورة تعانق رحم الأرض؟ وكنتُ أمسك به وأنا جالس على دكة كان يجلس

عليها أبي رحمه الله وكانت تجلس عليها أمي؟ هل أقول رحمها الله؟ الرحمة تجوز على الحي والميت، وأنا لا أعرف إن كانت أمي حية أم ميتة، فكيف لم تحضر بجانبني على الدكة في ذلك المشهد؟ هل كانت إشارة أحدهم إلى الباب المغلق في البيت القديم وكلامه عن أمي محاولةً منه لأن يُفقدني عقلي بالفعل؟ أم أنها كانت موجودة فعلا؟ هل ازداد مرضها إلى هذا الحد؟ هل كانت صورتها الحائرة المستغرِبة وهماً تراءى لي؟ لكنها كانت حقيقية؛ فلقد رأيتُ بعينيَّ اللذين سيأكلهما الدودُ نظرةَ الفرع والخوفِ في عينيها، وحاولتُ النهوض فعلا لأنقذها، ولكن قيودي وسهام نظرات إخوتي أوقفنتني.

ولكن تصرفات إخوتي كانت تقول بأنها كلها تمثيل وتقمُّص، كما أكد أحدهم. ولا يمكن لأمي أن تخذلني، لا يمكنها أن تترك كل هذا العبث! وحتى لو فقدتُ عقلي بالفعل، ما دخل الأمومة بالعقل أو الجنون؟ ولماذا تخنفي عين العقل وجيم الجنون من على لساني؟ هل "من على لساني" أم "من على لسان صمتي"؟ هل الأسئلة عندما تدور في الرأس أو القلب دون أن ننطق بها يكون لها لسان؟ وكيف تتكلم هذه النعوش؟ هل هي القلب أو العقل الميت؟ وهل الموتى يخيفون هكذا؟ هل يهددون هكذا؟ هل يسخرون هكذا؟ أخشى أن تكون كل هذه النعوش تمثيلا وتقمُّصا غير مُتَقَن، كما شاهدتُ بعيني ذلك ذات مرة على إحدى الشاشات؛ كان الذين من المفترَض أنهم ميّتون يتحركون تحت الكفن الأبيض ويتبادلون النكات ويطلبون من المصوّر أن ينتظر قليلا حتى يأخذوا وضع الاستعداد.

أنوِّعُ كلّ نبرات صوتي وأنا أقول لهم: "انصرفوا، انصرفوا، انصرفوا". أو شكُّ أن أدخل في حالة هستيرية قد تُسقطني فاقدَ الوعي أو تعيدني إلى تلك الدكة ومن يتحلّقون حولها وحولي.

وجدتهم يمسكون بي. يربطون يديَّ ورجليَّ. يُنزلون طفلا من الأطفال الذين في النعوش، قائلين له:

- انزل يا ولد. المشي ليس سيِّئاً. سنستضيفُ ذلك الذي يطالبنا بالانصراف على نعشك وندفنه بدلا منك، لتنجوَ روحك وينجوَ جسدك ويتعرَّفَ ذلك الآدمي على دولة الأشباح بحق.

قرأتُ المعوذتين. شددتُ شَعَرَ رأسي. غرستُ أظافري في جلد يدي. لم يتغيَّر شيء. ولكنهم لم يفعلوا شيئاً، كأن تهديدهم لي مجرد تمثيل هو الآخر. ولكن أحدهم أمسك بي فجأة ووضعني على النعش في صمت، دون أن يلتفت أو يهتم أحد كأنني لا شيء، أو كأنني كنتُ على النعش من قبل وسقطتُ من عليه، فقام ذلك الرجل بإعادتي إلى مكاني، وكأنه معتاد على كل ذلك ولا يوجد ما يدعو للضجة أو التوقُّف.

أهملوني تماماً وأخذوا يسيرون كالمؤمنين أو كالمترفعين الذين لا يبالون بأحد. يتحرَّكون تحتِي كما لو كانوا بلا أجساد تتحرك أو تهتز، فأنا ثابتٌ تماماً في النعش: أنظر إلى السماء: لا قمر يسطع ولا شمس تظهر، ضوء ما بين الضوئين كأنه الظل، أو الضوء الذي يتم استعماله لتصوير الأحلام في الأفلام، وأشجار تتراقص في الهواء في السماء أعلى رأسي، أغصان تتمايل وتتمايل ثم تنظر لي كأنها تريد أن تقول لي شيئاً، ولا أحس بأن رأسي صفتُ ذلك الصفاء الذي يؤهلها لأن تستقبل رسالة كهذه.

ظننتُ أن سيري وهروبي قد يفتحان هذا الصفاء أمام رأسي. لكن هؤلاء الأشباح الذين لا أراهم أشباحاً، وإنما أراهم... كنتُ أظن أنهم وجوه حزينة على فقدان أبنائهم، لكنني رأيتهم يستسلمون للموت ويتبادلون الأدوار ما بين الموتى والأحياء، كأنهم لا يخضعون لعالمنا! آآآه! هل هذا مجال للسخرية؟ ما هو عالمهم؟ ومن نحن الذين في هذا العالم؟

ضريّر، لا أعرف، أنا هنا وحدي. تركتُ في بيتنا، فيما يُفترض أنه بيتنا، أشباحاً من نوع آخر، وها هم أشباح يعلنون أنهم أصحاب المكان، وكنتُ أظنهم بشراً أيضاً، ويلقَّبونني أنا بالآدمي، كأننا لا ننتمي لنفس النوع، لنفس الأرض!! ما الذي جاء بهم إلى هذه الأرض؟ هذه الأرضُ عشتُ فيها عشرات السنين: منذ ولدتُ إلى أن رحلتُ، أعرفُها شبراً شبراً، لم تكن مَسْكناً للأشباح. أعرف أن الأشباح احتلوها. أنا الآن آدميٌّ!! نعم أنا آدمي، لكن هذه الصفة تعتبر شتيمة الآن! من المُفترض أن كل من يوجدون هنا آدميون. لكن أن يتحوَّلوا لأشباح فجأة وأصير أنا الآدمي الوحيد، فهذا مجال للسخرية، مفتتحٌ للشتيمة، كأنَّ كلَّ شيء ضاع بالفعل، كأنَّ الأرضَ لم تُعدِ الأرضَ، أو كأنَّ وهمي لم يعد وهمًا، تبدَّد وانفتحت عيناى على حقيقة شبحيَّة تُقطرُ... من المُفترض أن أقول: تقطُرُ دمًا، تقطُرُ دمعا، لكن هل الأشباح

يَقْطُرُونَ دَمًا أَوْ دَمْعًا أَوْ مَرَارَةً؟ وربما كانوا يستخدمون ألفاظًا أخرى، وربما كان الدم لهم لا يعني أي شيء: مجرد دم يُسال، ولا يهم إن كان دمًا لإنسان أم حيوان أم طائر أم نبات أم... هو دم، ربما كان مجرد ماء يشربون منه، أو ربما كان برازًا يتخلصون منه، ولكنهم لا يتخلصون منه من أجسامهم، وإنما من أجسام آخرين، كأنهم يقضون حاجتهم بتصفية أرواح آخرين!!

ما هذا؟ أشجار، هلوسات! يبدو أنهم شعروا بما يدور في ذهني، أو ربما شعروا بثقل جسمي على النعش، فها هم يرفعون الصبي الذي أنزلوه من قبل، ليصعد إليّ ويفكّ أحبالي. يهمس لأحدهم بكلام لا أفهمه. ينظر لي الطفل... لا ينظر، فلا أعرف إن كانت له عين أم لا. أخذ يتحسّس رأسي، أنفي، عيني، فمي. ضغط قليلا على رقبتني. ويبدو أنه ملّ مني، فها هي يده في الغالب وربما بمساعدة آخرين تدفعني لأسقط على الأرض دون أن يَعْبُؤُوا بي أو ينظروا للوراء أو يتذكروا الدرس الذي قالوا إنهم سيعلمونني إياه...

ما المقصود من كل هذا؟ يمكنني أن أستوعب كل ما قام به إخوتي، فهم إخوتي على أية حال، ويمكن لما كان بيننا ولقرابتنا وللصراعات التي بدأت أتذكّر بعضها الآن أن تمدّني ببعض الخيوط التي تساعدني على الفهم. ولكن ما المقصود من تصرّفات هذه الأشباح؟ لا أظن أنها وهم، ولا أظن أنها أشباح أيضًا، فأحسستُ باللحم والدم في الذي رفعني على النعش كأنه يرفع ثمرة تفاح أو قطعة قماش سقطت من على النعش. وها هي آثار تقييدي بالأحبال أراها بوضوح على نور الهاتف، وها هي كلمة آدمي ترنّ في أذني، وها هم يسيرون نحو داخل البلدة أمامي، وها أنا واقف أراهم بوضوح. ومن الواضح أن هذا العدد من الموتى يقول بأن هناك كارثة تفوق مأساتي الشخصية، ولا يمكنني أن أقف عاجزًا هكذا، فلا بد أن أقدم لهم كل ما أستطيع تقديمه، وسأتغاضى عن لعنتهم الغريبة. ألحق بالذين في آخر الموكب أو الصفّ وأتودّد إليهم، قائلاً:

- يبدو أنكم أناس عقلاء وأنا لا أريد إلا أن أقدم المساعدة..

يقاطعونني ويقولون في نفس الوقت:

- أناس؟ وعقلاء؟ يبدو أنك مجنون يا آدمي.

أقول لهم:

- إذا كنتُ أنا آدميًا، مَنْ أنتم؟

يُنزلون النعشَ من على أكتافهم، وينظرون لي نظرة تهديد ويقولون:

- هل ستعيد سؤال ذلك المجنون؟

أسألهم:

- من؟

يسألونني:

- من أي زمن أنت؟

أقول لهم:

- أي زمن؟ أليس زمننا هذا هو القرن الحادي والعشرين؟ في سنة ما من العقد

الثاني، ربما كانت 2013 أو 2014، فما أذكره يقول شيئًا وملابسي الشتوية تقول شيئًا آخر.

يقول أحدهم وقد تنحّى الآخرون جانبًا مثل أخويّ اللذين كان يجلسان على الدكة في

لا مبالاة بعد أن أبلغهما إخوتي الباقون أنهما لا ميراث لهما:

- شتوية؟! أي شتوية يا ابن شتوية؟

أقول له غاضبًا:

- لا تتكلّم عن أمّي.

يسألني غاضبًا:

- هل تكلمتُ عن أمك؟ أنا أتكلّم عن أم ملابسك.

أقول له بمزاح كي أخفّف حدة المشهد:

- إذا كان الموضوع كذلك، فلا بأس. لكنكم لم تجيبوني: إذا كنتُ أنا آدميًا، فمن أنت؟ ومن أنت؟ ومن أنت؟ ومن أنت؟

ولا أستخدم صيغة الجمع "أنتم" التي غضبوا منها من قبل. يقول أحدهم:

- هل هذا سؤال يحتاج إلى إجابة؟ نحن بشر.

أغمضُ عينًا وأنظر له بالعين الأخرى وأنا لا أعرف إن كان ضوء الجو الضعيف يسمح له بأن يرى إغماض عيني أم لا:

- يبدو أنه فرق كبير، ولكنني لا أعرفه؛ ما الفرق بين الادميين والبشر؟

أراه يغمض عينًا وينظر لي بالعين الأخرى، وكأنه يقلدني، ويقول لي:

- اسكتْ يا عبيط.

والغريب أنني لا أتضايق من كلمة "عبيط"، لأن الغراب قالها لي من قبل وهو يقف في صفِّي ويساعدني. وأقول له:

- لا مشكلة في أنني عبيط، لكنني أريد أن أعرف الذي حدث؟

يقول لي:

- سأقرب لك الموضوع. وأقول لك بيتًا من شعركم: مَنْ لَمْ يَمُتْ عَبْطَةً يَمُتْ هَرَمًا  
للموت كأسٌ فالمرءُ ذائقُها

لا أفهم ما علاقة العبط هنا، ولكنني أستنتج أن العبط نقيض للشيخوخة كأن يعني الشباب. فأسأله:

- هل تراني شابًا؟ أحسُّ بأن سنواتي التي جاوزت الأربعين تُثْقِلُ عليّ؟

يقول لي باستغراب:

- أربعين؟ إذن أنت طفل ولست شابًا. لكن ملامحك لا تقول بأنك طفل، ما الذي ساقك إلى الحرب؟ ولا تقل لي إن سؤالي يناقض نفسه، فالعبيط لا يساق إلى الحرب وإنما يستعبط نفسه.

أقول له:

- لا أفهم الكلام ولا أرى التناقض.

ينظر لي بشفقة ويضع يده على جبهتي ويغمض عينيه ويدمدم بكلام لا أسمعه بوضوح، ثم يرفع ذقني لأعلى كأنه يريد أن يتأكد من ملامحي، ويقول:

- يا حرام! كما تقولون أيها الآدمي.

لا أعرف لماذا أستبشع كلامه الدائم عن عالمين مختلفين: نحن وهم. وفي الوقت ذاته يُقَلِّقُنِي كلامه، فمن الواضح أنه يعرف شيئاً لا أعرفه. ولكنني أتذكر كلام ما بعد نزولي من أرض الغربان في "على أعتاب العبور"، فأحسُّ بقدر من الاطمئنان، وأجدي أقول له:

- ربنا يبارك فيك. وجودي من قبل في أرض الغربان يطمئنني إلى حد ما.

يقول لي صارخاً وقد عاد الذين كانوا في الظل بجانبنا:

- لا تحدثني عنهم أولئك الغربان الملائعين. يعتبرون أنفسهم رموز الحكمة والعدل وعشق الحياة، وينظرون لنا على أننا ممثلون بارعون.

لا أجد مفراً من أن أسأله:

- من أنتم؟

تحمّر أعينهم وأرى احمرارها واضحاً كضوء أحمر متوهّج ومخيف في الوقت ذاته ويقولون بتهديد واضح:

- لو سألت هذا السؤال مرة أخرى ستلحق بشتويّة، يا ابن شتوية.

أحسُّ بأنني أريد أن أسخر من تهديدهم ولكن بطريقة غير مباشرة، فعيونهم مخيفة بالفعل، فأقول لهم:

- لبستُ الملابس الشتويّة.

وأهمُّ أن أغنيَ لهم مقطعاً من أغنية "سؤال" في ألبوم "بنتولد" لمحمد منير سخرية من السؤال الذي يتكلمون عنه:

سؤال بأسألك: ايه آخرة الترحال وسهر الليالي وكل يوم بحال؟

سؤال بأسألك: ايه آخرة الأحزان؟ دمعتي موالى والحنين قتّال

سؤال بأسألك: ايه آخرة الأحلام؟ ليلاتي واخداني في بحر م الأوهام

سؤال بأسألك: ايه آخرة العذاب؟ تاغبني سؤالي؛ يا ريت ألاقي جواب

ولكنني أدرك أن الأغنية غير مناسبة، فهو أكد على أنه مختلف عني، ولذلك أبتعد عن هذه الأغنية وأسأله أسئلة مباشرة متفرقة من أغنية "حدوتة مصرية" لمحمد منير أيضا:

مين اللي عاقل فينا؟ مين مجنون؟

مين هو صاحب المسألة والمشكلة والحكاية والقلم؟

رأيت كل شيء وتعبت على الحقيقة.

بمدّ ايدي لك، طب ليه ما تقبلنيش؟

فيقولون لي:

- يهمننا الاسم. وما دمت قد استشهدت بهذا الحالم الواهم المارق المسجون قريبا بإذن الله، فأنتم من طريق ونحن من طريق. هؤلاء على طريق الجنة، وأنت، ابحث لك عن طريق بعيدا عن طريقنا يا أيها الموصوف بأوصاف المسجون قريبا بإذن الله.

وينصرفون قبل أن أقول لهم ضاحكا:

- هذا فراق بيني وبينكم.

وأود لو أقول لهم: "هذا فراق بيننا وبينكم"، ولكنني لم أعرف من هم، ولا أعرف الذين يجمعون بيني وبينهم. فأنصرف أنا الآخر، ولكن في الاتجاه العكسي الذي كنت أسير عليه من قبل وأنا أشعر بانتعاش كأن خطوتي تعانق الإحساس بالأرض من جديد.

### الفصل الثالث

المكان كما هو في عيني، فلا يبدو أنه يتأثر بالنسيان أو فقدان الذاكرة، كأن فقدان في بعض الأحيان انتقاء: يطال الأشخاص وعلاقاتك وروابطك معهم، دون أن يصل إلى المكان الذي يجمع كل الأجزاء. ويبدو أن الذاكرة ذاتها مكان ولا يمكنها أن تتنكر لنفسها، وإلا صار رجوعها لذاتها مستحيلاً، ويبدو أنني لا أستطيع أن أتذكر نفسي، فها أنا أعود إليّ أيضاً، وها هو الرجوع واقع، أحس بخطواته الأولى، وكأن رأسي استبعدت الأزمنة مؤقتاً لتستحضرها ساعة التجلي.

هل كان على إخوتي أن يقوموا بذلك حتى أفرّ وسط الغيطان لألامس خطواتي القديمة وأعانق هذا البراح الغائم؟ وهل كان على أولئك السائرين موتى أن يجعلوني نقيضاً لهم حتى أحس بروح خطواتي وهي تدبّ على أرض جهينة؟ مع أنني لا أعرف الخبر اليقين، ولا حتى الخبر الحافّ الذي لا تزخره أو تحفّ به أشياء أخرى، وكأنه هو ذاته الحافة التي تظهر للعيان.

تحضر مسطحات مائيّة كأنها الامتداد، اللانهائية، الغموض، الرجوع، الانطلاق، التوقد، الصباح الذي يتنفّس بالرغم من أن الوقت ليل... من الذي أشعل الليل وجعله حصان طروادة، فلا أعرف إن كنت داخل الأسوار أم كنت خارجها؟

تتأرجح ذاكرتي من جديد، كأنني أرى المكان ولا أراه، لا أراه وأراه، يجمع بين هنا وهناك، بين هناك وهنا، فلا أعرف إن كنت راحلاً أم قادمًا! لا أعرف إن كانت الخطوات ذكرى أم أن الذكرى خطوات! وما بال ذاكرتي تحضر في وسط هذا الخراب والاعتراب والرجوع، تُنشئ محطات توزيع، فترسل الخيوط هنا وهناك، وكأن اللقاء افتراض، والافتراض والفراق لقاء في موضع آخر، ربما بوجوه أخرى، بوجوه قديمة تسترد صفاءها، تخلع قطرات الشاي التي تم انتزاعها مني، وكأن القطرات تبخرت وصعدت لتعود إليّ بنفسني، لتستحضرني بعيداً عن هذا المكان، عني، عن ذلك الجبروت الذي لا يراعي دماً ولا ماءً ولا أحبالاً سريّةً ولا أحبالاً صوتيّةً ولا...!

هل ذلك البعيدُ سورٌ؟ أم أنه خيط هلامي يتوهَّمه أولئك الأشخاص السائرون موتى والممثلون حياةً، ويقصفون وراءه أحبالاً سُرِّيَّةً ووروداً بريَّةً وأحلاماً فسيحة؟ لم يكن ذلك السور موجوداً هنا عندما دخلتُ البلدة من مدخلها المنفتح على الطريق الصحراوي الغربي عند مجيئي، ولم يكن هناك إلا صوت أبي الذي ردَّ عليَّ عندما أُلقيتُ السلام على الموتى في الجبَّانة، فاحتضنني الصوتُ واحتضنتُ فيه خطواتي القديمة قبل رحيله وقبل سفري، وما هو الصوت تلاشى بالرغم من أنني أُلقيتُ السلام. هل السور منع صوتي من الوصول للجبَّانة؟ أم أنَّ مَنْ بناه أزال الجبَّانة وأقام مكانها حصوناً لا أعرف لها سبباً؟ هل عندما دخلتُ من البوابة عند مجيئي دخلتُ في كهف لأصحو الآن على زمان غير الزمان، على مكان امتثل للخصخصة وصار غريباً عن نفسه وعنِّي؟

يااااااااااا! الحياة للحياة. ها هو صوتٌ – أدرك الآن أنه قديمٌ – يعاودني، أين "بلاد الذهب" هذه؟ ولماذا يئن هذا الصوت وهو يحن إليها؟ لماذا يتحول صوت الموسيقى ذاته إلى حنين؟ ما هذا؟ هل هذه الأغنية أيضاً خبطها أحدٌ في ذاكرتها؟ لماذا يسخط الصوت على هذه البلاد الآن وقد كان هناك يحن إليها كأن وجوده ليس له معنى من دونها؟ هو الآن غاضب، متمرّد، ساخر، يسخر حتى من نفسه ومَنّي ومن الأغنية ذاتها، وكأن "مشتاقلين" المطرب أحمد منيب حيرهم العشق فلا يجدون لاشتياقهم معنى أو يجدون له معاني متضاربة.

ما هذه الأصوات المتداخلة؟ هل هناك أغنية فعلاً أم أن الأصوات تحضر من تلقاء ذاتها، لتمتزج على هواها في أذني؟ يدخل صوت أغنية "برّة الشبايبك" لمحمد منير ليؤكد على وجود الغيوم والمطر خارج الشبايبك، ولكنها تعدّل نفسها، فما هو الصوت يعيد صياغة كلماتها وإحساسه بها، فينفي خوفه من الغيوم ومن المطر مع أنه يؤكد على إحساسه بالخطر. وما هو يتجاهل آخر مرة للقاء، ويؤكد فقط على اللقاء الأول. ها هو يرى الحجر حجراً، والمعدن معدناً، ويبحث عن الإنسان في خروجه على نفسه، ويتساوى عنده الدمع والمطر، القلب والحجر، الموت والخطر، الحزن والوتر... كأنه يستحضر كل الأشياء أمامه وينظر إليها نظرة غير مشحونة، ليراها كما هي، ويفكر لاحقاً في كيفية المزج بينها وتحميلها

بشحنات إضافية بعد أن يكون قد فرّغها من كل الشحنات السابقة، ويؤكد أنه لا يهمله شيء الآن، لا يهمله حتى أمر حبيبته...

ها هو صوت محمد منير ينتقل إلى شجر الليمون ولا يغيّر في الأغنية شيئاً، فها هي أشجار الليمون ذابلة، وها هي المواسم تمر دون أن يتغيّر شيء، وها هو يؤكد أنه ليس عاقلاً ولا مجنوناً، أنه في ذلك البرزخ الذي تلتقي فيه كل الأشياء، فلا هو هنا ولا هو هناك، ويؤكد أنه "مطحون" مع أنه يحب الحب ويحب العيون التي تنبعث منها الحياة، ومع ذلك ها هي كل الأشياء تُسرق منه، وكل شيء حوله يناديه، وهو ينادي ذلك المخاطب الذي لا يعرف هو إن كان يسمعه أم لا، ولكنه يؤكد على الانقضاء، على أن كل شيء لا يمكنه أن يحتل مواقيت غيره مهما فعل ومهما حاول أن يقضي على هذا الغير.

لماذا تعود إليّ الأغاني فقط بكامل حضورها وتألّفها، ولا تحضر في ذاكرتي أشياء أخرى؟ هل أنا أغنية؟ أم أن الأغاني هي ما يصفو مني في ذاكرتي؟ لماذا تظهر الأغاني أولاً؟ لا يهم ذلك الآن، المهم أن شيئاً يعود... ما كل هذه الحياة!! ها أنا أعود لأحسّ بكل شيء من جديد، ها هي الأغاني تنبض في قلبي، ها هي السماء قريبة، وها أنا بعيد عن أرضي وقريب منها، ها هو السور موجود وغير موجود، ها هي الدكة قريبة وبعيدة، ها هي شظايا كوب الشاي تتناثر وتدميني، تتجمّع في دمي وترمّمني، ها هو دمّي مُرّ وحلو، ها هي القطرات قطرات شاي ودمٍ وماءٍ وأشواكٍ وحميميةٍ ورجاءٍ في غد أفضل، ها أنا أعودُ إليّ: أجمع بين كل الحالات وكل الشذرات، كأني متحقّقٌ وناقصٌ وأسعى للتحقّق، كأني مشتّتٌ ومجمّعٌ وملتئمٌ... اللهم لك الحمد على هذا البرزخ الشجيّ، على هذا المجمع الشهيّ، على هذه المائدة النيلية.

## الفصل الرابع

قالت أمي بنظرة متباعدة وهي تنظر إلى الخصرة اليتيمة بامتداد قراريط عاجزة:

- يا ولدي إن كانت الأرض لا تعطي مقابل همّ تحمله لأجلها فليعدّ أخوك إلى أرضنا هنا بدلا من البهدلة في أرض الصحراء هناك. ماذا نفعل؟ كلّمني أكثر من مرّة وطلب العودة، فهو لا يحتمل أن يصبر على صحراء تعانده.

نظرتُ إليها صامتًا. حاولتُ أن أحسب كلماتي جيدا كي لا أخرج مشاعرها أو أغضبها، وفي الوقت ذاته كنت أريد أن أردّ عليها ردّا يجعلها تنظر نظرة محايدة دون أن تحابي أحداً أو تغمض عينيها عن كسل لا يطلب الحياة.

- انظري يا أمي. هل أعطاك أحدٌ منا مقابل همّ كنت وما زلتِ تحمليه لأجلنا؟

ردّت على الفور كأنها تنفي عنها تهمة:

- أنا يا ولدي لا أريد مقابلا!

فاستثمرتُ تلقائيتها على الفور، قائلاً:

- وهل يحقّ لنا أن ننتظر من صحراء كالطفل الرضيع مقابلاً الآن؟

غابت في صمت عميق بنظرات تتخبط في حيرة كالعاصفة.

ها أنا أذكر الموقف بالتفصيل، وكأنه ما غاب عني في يوم من الأيام. صمتتُ أمي لدقائق وذهبت لتجهّز لي ولها كوبين من الشاي. وسمعتها وهي تكلم نفسها في المطبخ الصغير الملحق بالمنصرة في البيت الجديد. قلتُ لها ضاحكاً:

- ماذا بك يا بنت الأكابر؟ لو كلّمتُ أنا نفسي، سيقولون: عيّل دماغه طاقّة والقراءة

لحستُ مخّه. لكن ماذا سيقولون عنك؟

قالت لي:

- سبّني لحالي يا ولدي، كلامك يرّ في أذني من جهة، وكلام أخيك يرّ من الجهة الأخرى.

قلتُ لها:

- سببها على الله يا أمي.

قالت لي:

- ونعم بالله يا ولدي، ها أنا سكّتُ.

قلتُ لها:

- ربنا ما يُسكّتك لك حسًا يا أمي.

جاءت بكوبي الشاي. وضعتُ كوبًا على الدكة بجواري، ووضعتُ كوبها على الدكة المقابلة لي وجلستُ. جالتُ بنظرها في المنظر من حولنا، ثم نظرتُ إلى الأشجار التي تظهر من بين أسياخ الحديد. ارتشفتُ رشفة من الشاي وأحسستُ بأنها تتكلّم داخلها، ولم تستطع أن تخفي كلامها بالرغم من أنها لا تصدر أصواتًا، فحركة شفيتها كانت ظاهرة. ابتسمتُ وقلتُ لها:

- هاتي ما عندك يا أمي. أعرف أنك لن تهديني إلا بعد أن تقولي كلّ ما عندك.

لم تبسم وقالت:

- لا يوجد شيء يا ولدي. أحسنُ لي أن أسكتَ.

قلتُ لها:

- اضحكي يا شخّة، لا تشيلي همًا. أنا لا يرضيني أن تسكتي وأنتِ تريدين أن تتكلّمي.

أطالت النظر إلى كوب الشاي الذي بين يديها. ثم ابتسمتُ وقالت:

- ربنا يخلّي لك زوجتك وعيالك يا ولدي.

ابتسمتُ عندما أدركتُ أنها لا تعرف من أين تبدأ، وقلتُ:

- اللهم آمين للجميع يا أمي، ويخليك لنا.

قالت لي:

- بدمتُكِ، ألم تحنّ إلى زوجتك؟

قلتُ لها:

- هي زوجتي وحبيبتي يا أمي، وإن كنتُ لا أحنُّ لها الآن، فلمن أحنّ؟ لكن كلها أيام وأعود إليها ولعياالي. بلا لفّ ولا دوران، ادخلي في الموضوع يا أمي.

قالت لي:

- هذا هو الموضوع يا ولدي، اوعَ يكون مخّك راح بعيدًا.

قلتُ لها:

- والله يا أمي، لم أعد أعرف إن كان مخّي يروح بعيدًا أم قريبًا أم لا يروح أصلا. العيال كبرت يا أمي وشالت الهمم بدري.

قالت لي:

- سلامتك يا ولدي من الهمم. كله بثوابه. والذي يروح عند إخوتك لا يضيع.

قلتُ لها:

- ربنا كبير وقادر على كل شيء يا أمي. ما الموضوع؟

قالت لي باستغراب:

- كلُّ هذا ولم تفهم وأنت الذي يقولون عنك تفهم الكلمة وهي طائرة!!

قلتُ لها ضاحكًا:

- لا تقلقي يا أمي. كنتُ أفهمها وهي طائرة قبل ما أشمّ رائحة الياسمين واللوتس. أما الآن، فأنا لا أفهم شيئًا.

قالت لي في حيرة:

- الياسمين ونسمع عنه، ولكن ما هو اللوتس الذي تتكلم عنه يا ولدي؟

قلتُ لها:

- لا شيء يا أمي. هذا نبات مرسوم على معابد الفراعنة.

قال لي مستغربة:

- وما الذي ذهب بك إلى الفراعنة يا ولدي؟ ممكن يسخطونك.

قلتُ لها:

- لا داعي للقلق. كنتُ أمزح معك. اللوتس ببساطة مثل أرض تزرع فيها ولما يطلع  
الزراع تجدينه ألوانا زاهية ومنظره منور. وفجأة يولع واحد في الأرض أو يجيء  
بلدوزر ويشيل كل الذي تزرع فيه.

قالت لي:

- والله أنت حيرتني يا ولدي: هل أسألك إن كانت أرض قنا زهت مثل ما تصفها  
وأخوك يخدعني؟ أم أسألك: ولماذا تسكت عن الذي يحرق أرضك أو يشيل  
زرعها بالبلدوزر؟

قلتُ لها باختصار وأنا أبتسم:

- المشكلة يا أمي أن الواحد فينا قد لا يعرف أنه كان جباناً إلا بعد أن يكتشف أنه  
كان مغفلاً، وأنا كنتُ أظن أنني أبو زيد الهلالي سلامة.

قالت لي:

- والله لا أعرف ماذا أقول لك.

باغثها وقلتُ:

- يكفي اللف والدوران، ما الموضوع؟

قالت لي:

- أي موضوع يا ولدي؟ الموضوع الذي لم تفهمه؟

قلتُ وأنا أهزُّ رأسي وأنظرُ لها بنصف عيني:

- نعم، الموضوع الذي لم أفهمه.

قالت لي:

- كيف أجعلك تفهم؟ سأوصل لك الموضوع بطريقة أخرى. أخوك طلب مني أن

أطلب منك أن تحضر له بعض البرشام الأزرق. قال لي: "هو عنده في "مصر"

أنواع مُعْتَبَرَة. أكّدي عليه أن يحضر لي شريطاً أو شريطين".

ضحكتُ طويلاً، ولم أخشَ أن يسمع بعض أبناء أعمامي ضحكتي فيُنشَن عليها،

فالذي حدث قد حدث، والله قادر على كل شيء، وما الذي يمكنهم أن يفعلوه بعد كل ما فعلوه؟

وقلتُ لأمي:

- أنا لا أستعمله يا أمي. الله كُلُّه كرم وفضل.

قالتُ لي:

- هل يعزُّ شريط من البرشام الأزرق على أخيك يا ولدي؟ منذ متى وأنتَ تدلّ

يدك بجانبك هكذا؟

قلتُ لها:

- تعرفين أنني لا أدلّل يدي وأن يدي فارطة دائماً. ولا مشكلة يا أمي، سأشتري له

شريطين في المرة القادمة. لكن لماذا يحتاجهما؟ وما علاقة ذلك بالموضوع الذي

تدورين حوله؟

قالت:

- الشهادة لله يا ولدي، لا أعرف علاقته بالموضوع. لكنك تعرف أن أخاك يتعب في

شغل الأرض ويجوز أنه يحتاجهم دواءً لتعبه. وسألنا على الأسبرين في الدكان،

قال لنا البائع إنه لم يعد يبيعه.

قلتُ لها:

- لا توجد مشكلة. لن نتكلم عن الأسبرين ولا عن الدكان الآن. ادخلي في الموضوع مباشرة.

ضحكت وقالت:

- قلتُ لك زوجتك، وقلت لك تحنّ إليها، وأنت سيد العارفين.

ضحكتُ وقلتُ لها:

- ألا يأتي أخي أسبوعًا كل شهر ويقضيه مع أولاده؟

قالت لي وما زالت ابتسامتها ترافقها:

- أسبوع لا يكفي يا ولدي. أخوك يريد أن يبقى هنا الشهر كله.

رشفْتُ آخر رشفة من الشاي وقلتُ لها:

- والأرض يا أمي؟ هو الوحيد المُزارعُ فينا. وإن لم يكن هو موجودًا هناك، من

سيحتمي أرضنا؟ هل سيحميها الغريب؟

قالت لي بما أحسستُ أنه جراءة:

- ليس كل غريب قليل أصل يا ولدي، وممكن تلقى غريبًا يصون أرضك.

قلتُ لها على الفور:

- ليستُ أرضي يا أمي. ما حاجتي أنا للأرض؟ الأرض لإخوتي الذين يعيشون هنا.

ستكون لهم في النهاية، فلا أنا مزارع ولا أولادي مزارعون.

قالت لي على الفور أيضًا:

- ولكن إخوتك يقولون إنك تسخرهم في الأرض، ولم تكتب فدانًا واحدًا باسم أي

أحد منهم.

استغفرتُ الله العظيم وقلتُ لها:

- وَمَنْ الَّذِي كُتِبَ بِاسْمِهِ أَيُّ فِدَانٍ يَا أُمِّي؟ أَوْرَاقُ الْأَرْضِ مَا زَالَتْ فِي الْوِزَارَةِ وَلَمْ تُسَجَّلْ بِأَسْمَائِنَا حَتَّى الْآنَ.

قَالَتْ لِي بِقَلْقٍ:

- هَلْ فُلُوسُكَ حَرَامٌ يَا وَلَدِي؟ دَفَعْتَ فُلُوسَكَ فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ بِاسْمِكَ!!

قُلْتُ لَهَا:

- لَيْسَتْ هَذِهِ مَشْكَلَتُنَا الْآنَ. مَشْكَلَتُكَ أَنْكَ تَعْرِفِينِنِي جَيِّدًا يَا أُمِّي وَمَعَ ذَلِكَ تَصَدِّقِينَ أَيُّ كَلَامٍ يُقَالُ لَكَ.

قَالَتْ لِي:

- وَمَنْ أَيْنَ لِي أَنْ أَعْرِفَ يَا وَلَدِي؟ هَلْ أَخُوكَ سَيَكْذِبُ عَلَيَّ؟

قُلْتُ لَهَا:

- اللَّهُ أَعْلَمُ بِالنَّوَايَا يَا أُمِّي. وَلَكِنْ رَبَّنَا عَرَفُوهُ بِالْعَقْلِ. تَخَيَّلِي الْحَالِ هُنَا بَعْدَ سَنَوَاتٍ، وَأَنْتِ ذَاتَكَ كُنْتَ تَشْجِعِينَهُمْ عَلَى الْخَلْفِ. الْحَالُ تَغَيَّرَ يَا أُمِّي. وَالْأَكْلُ الَّذِي يَكْفِي الْيَوْمَ لَنْ يَكْفِيَ غَدًا. قُلْتُ لِنَفْسِي: أَخِذْ الْأَرْضَ لِيَتَنَفَّسُوا فِيهَا. وَأَنَا لَنْ أَخِذَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا جَلْسَةً هُنَا وَسَطَ الْخَضِرَةِ أَوْ جَلْسَةً هُنَاكَ.

قَالَتْ لِي:

- يَا وَلَدِي، إِذَا كَانَ الْمَوْضُوعُ كُلُّهُ جَلْسَةً، فَجَلَسْتُكَ وَسَطَ الْخَضِرَةِ هُنَا عِنْدَمَا تَأْتِي مِنْ "مِصْرٍ" تَكْفِي.

قُلْتُ لَهَا:

- الْمَهْمُ رَاحَتُكَ يَا أُمِّي، وَالَّذِي يَأْكُلُ عَلَى ضَرْسِهِ يَنْفَعُ نَفْسَهُ.

قَالَتْ لِي وَقَدْ تَهَلَّلَ وَجْهَهَا:

- يَعْنِي سَيَأْتِي أَخُوكَ لِيَبْقَى مَعَ عِيَالِهِ يَا وَلَدِي؟

قلتُ لها:

- إذا كان الموضوع موضوع عيال، يمكنه أن يأخذهم معه، وهناك غرفتان في بيت المزرعة. وهناك مدارس قريبة. وإذا احتاج إلى غرفة أخرى يمكنه أن يبني الغرف التي يحتاجها.

قالت لي:

- هل بعد كل هذا العمر يا ولدي سيسيب الأرض هنا ويذهب ليسكن هناك؟ الناس سيأكلون وجهنا.

قلتُ لها على لسان المطرب جورج وسوف:

- "كلام الناس لا بيقدم ولا يأخر / كلام الناس ملامة وغيره مش أكثر"

فقلت لي بابتسامة خفيفة:

- والله أنت فاضٍ يا ولدي.

قلتُ لها:

- الفضاء وحشٌ يا أمي

قالت لي:

- سببك من اللّش. أتكلّم بجدّ. سأكلّمه وأقول له إنك وافقت.

قلتُ لها:

- ياااااه يا أمي! لم أسمع هذه الكلمة منذ زمن.

قالت لي بعتاب خفيف:

- اللّش، اللّش، ربّنا يكمل عقلك.

قلتُ لها وقد نفذ صبري ولكنني لم أرِد أن أجعلها تحسُّ بذلك:

- ها هو هاتفني يا أمي. كَلَمِيهِ وَقُولِي لَهُ كُلَّ الْكَلَامِ الَّذِي قُلْنَاهُ. وَشُوفِي إِنْ كَانَ سَيَنْفَعُ  
نَفْسَهُ أَمْ سَيَأْكُلُ عَلَى ضِرْسٍ غَيْرِهِ. وَكِي أَخْلَصَ ضَمِيرِي، لَنْ يَكُونَ عِنْدَ أَيِّ أَحَدٍ  
ضُرُوسٌ فَاضِلَةٌ لِيُعْطِيهَا لِأَحَدٍ.

قَالَتْ لِي:

- هَاتِ الْهَاتِفَ يَا وَلَدِي.

وَتَرَكْتَنِي لَتَتَكَلَّمَ مَعَهُ بَعِيدًا عَنِّي. فَضَحَكْتُ وَدَخَلْتُ لِأَجْهَزَ لِنَفْسِي كُوبَ شَايٍ بِالنَّعْنَاعِ.

\*\*\*

سَمِعْتُ أَغْنِيَةً قَادِمَةً مِنْ بَعِيدٍ، أَغْنِيَةٌ مِثْلُ أَغْنِيَةِ "فَلَانِ الْفَلَانِي"، لِلْمَطْرَبِ بِاسْمٍ وَدِيعٍ،  
وَلَكِنْ بِنَبْرَةٍ أَقْلَ حِمَاسَةً وَأَكْثَرَ حُزْنًا؛ وَفِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، هُنَاكَ شَجْنٌ وَحُزْنٌ وَأَنْيُنٌ ظَاهِرٌ أَوْ  
خَفِيٌّ، وَهُنَاكَ شَخْصٌ أَوْ مَكَانٌ أَوْ كَائِنٌ غَائِبٌ، كَائِنٌ تَرَكَ بِصَمْتِهِ وَاخْتَفَى، وَلَكِنَّهُ تَرَكَ فَرَاغًا  
وَمُسْتَوْدَعًا دَائِمًا لِلْحَنِينِ. مَطْرَبٌ شَعْبِيٌّ يَجْمَعُ خِلَاصَةَ الشُّعُوبِ بِصَوْتِهِ الْمَفْعَمِ بِالْأَنْيُنِ  
وَالشَّجْنِ وَالْعَذُوبَةِ. كَانَتْ الْمَوْسِيقَى كَأَنَّهَا قَادِمَةٌ مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ. سَأَلْتُ مَنْ أَجْلَسَ بِجَوَارِهِ  
أَوْ مَرَرْتُ بِهِ فِي ذَلِكَ الْمَوْلِدِ أَوْ الْإِحْتِفَالِ فِي سُوَهَاجٍ فِي الْغَالِبِ وَيَتَحَدَّثُ عَنِ الْمَطْرَبِ  
بِحِمِيَّةِ الْعَارِفِ. قَالَ لِي:

- اسْمُهُ عِبِيدُ الْإِمَامِ. لَنْ تَجِدَ شُرَائِطَهُ إِلَّا فِي جَدَّةٍ.

صَمْتُ كَأَنَّنِي أَعْرِفُ كُلَّ تَفَاصِيلِ جَدَّةٍ وَكَأَنَّنِي ذَهَبْتُ إِلَيْهَا مِرَارًا أَوْ أَنَّنِي أَعِيشُ فِيهَا  
وَلَا أَحْتَاجُ أَنْ أَعْرِفَ الْمَزِيدَ، وَكَأَنَّ جَدَّةَ لَهَا عِلَاقَةٌ بِهِ أَوْ بِأَيِّ فَنَانٍ عَلَى شَاكِلَتِهِ. لَمْ أَسْأَلْهُ عَنِ  
سَبَبِ مَنَعِ شُرَائِطِهِ أَوْ إِنْ كَانَتْ مَمْنُوعَةً أَصْلًا أَمْ أَنْ أَحَدًا لَا يَعْرِفُهُ سِوَاهُ. لَكِنْ الصَّوْتُ كَانَ  
يَتَسَرَّبُ فِي هَذَا الْإِحْتِفَالِ، وَمَنْ الْمُؤَكَّدُ أَنَّ الْجَمِيعَ يَعْرِفُونَهُ، وَكَنْتُ أَحْسُ بِأَنَّنِي أَنَا شَخْصِيًّا  
أَعْرِفُهُ مَعْرِفَةً شَخْصِيَّةً، وَكَأَنَّهُ يَسْكُنُ دَاخِلِي. كَمَا أَنَّ وَصُولَهُ إِلَى إِحْتِفَالِ بِسُوَهَاجٍ يُؤَكِّدُ أَنَّهُ  
مَعْرُوفٌ وَمُنْتَشَرٌ، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ فَرَحْتُ لِأَنَّهُ وَصَلَ إِلَى سُوَهَاجٍ وَصَارَ لَهُ جَمْهُورٌ فِيهَا،  
فَجْهِيْنَةٌ تَقَعُ فِي مَحَافِظَةِ سُوَهَاجٍ عَلَى أَيْةٍ حَالٍ، وَذَلِكَ يُضِيفُ لِمَسَةِ إِضَاءَةٍ وَنُورٍ لِلصُّوَرِ  
الْقَائِمَةِ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمَشَاهِدِ.

كان صوته أقرب للكنة العراقية ولكن بوضوح يجعلك لا تفلت منك كلمة مما يتغنى به. وربما كان ليبيًا أو سودانيًا أو صعيديًا أو فرعونيًا. لم أستطع أن أحدد جنسيته، ولم تهمني جنسيته في ذلك الوقت، فلقد كان صوته يعبر حدود القلب ويخترق حصون الأنواع الأدبية والغنائية ويصل رقرقا حميمًا بالرغم من أنني كنتُ أسمعه لأول مرة، أو في الغالب تفاجأتُ به يظهر من داخلي ويجعلني أسعى وراءه...

عرض عليّ صبيٌّ كان يمرُّ بصندوقٍ مليء بأشرطة الكاسيت الأصغر من الحجم المعتاد أن أشتري منه ما لا أذكره. كانت شرائطه أصغر بكثير من الشرائط التي يسجلُ عليها الصحفيون حواراتهم. رفضتُ عرضه بحجة كفايتي. فلقد كنتُ فعلا في حالة اكتفاء تام بذلك الذي يغني على البعد ويعزف على أوتار أذني بنغماته البدويّة، الطينية، الفرعونية، البابلية، الآشورية، النوبية، النيلية، الأمازيغية، التي لم أشعر بالرغبة في تصنيفها، فكانت أقرب لروح الغناء وخلصه الموسيقى الأسرة.

ما بين اليقظة والنام شغلتُ جهازَ التسجيل بهاتفي وسجلتُ اسمَ عبيد الإمام كي لا أنساه عندما استيقظ. كانت أغنيته كأنها شيء ينقضي، كأنني في حاجة إلى ذلك الطرب الذي يجمع ما بين الأرض والسماء، وكأن موسيقى روي ستلتئم بالاستئناس بصوته والاندماج في خبايا الروح والثورة. هل كان حلماً؟ هل كان مكيدة؟ هل كان صوتاً يريد أن يتعمق في؟ لم أستطع الوصول إليه، خاصة وأنني عندما بحثتُ عنه لم أجد له أثراً في سراديب الشبكة. حاولتُ أن أتذكر كلمات الأغنية، لم أجد سوى صدى يتردد في رأسي دون أن أستطيع أن ألتقط منه حرفاً واحداً، فأخذتُ أقلبُ في حروف روائي عليّ أبصرُ في حروفي صدى لحلمٍ يؤرّقني ويُسجّيني.

كيف أتذكرُ هذا الفاصل الآن وهو فاصل ضبابي أصلا وضباب الذاكرة وضباب الرؤى يستوليان على رأسي وقلبي ويقولان لي إنني هنا وهناك، إنني لستُ هنا ولستُ هناك، وهنا لها عشرات الوجوه، وهناك لها عشرات الوجوه؟ أليس من المنطقي أن يعاودني هذا الفاصل بوضوح، كما ظهر لي كلامي مع أمي بوضوح تام؟ ولماذا تعاودني هذه الأغنية الآن، ولكن وسط هذه الغيطان، وسط هذه الأشباح الحاضرة والغائبة، وسط الطريق التي لا

أعرف لماذا اتسعت واستطالت هكذا، وكأنني مجرد لقطة لشخص في فيلم يصوره حامل الكاميرا من زاوية بعيدة جدًا ليرز ضآلته وهضم العالم له، كأنه صار لا شيء، كأنه صار عمدًا يُستدلُّ به فقط على وجود الإنسان، مجرد وجود لا أكثر ولا أقل، دون أن يكون له حضور أو فاعلية أو فعالية أو أثر أو ثورة؟!

ها هو صوت عبيد الإمام يعود، هنا، في مكان مختلف، مكان أعرفه جيدًا على الأقل، غير مكان ذلك الحلم أو الرؤيا أو الهلوس، ويختلف صوته أيضًا هنا، فنبرته أقرب للموسيقى الجنائزية القادمة من زمن بعيد، كأن الصوت في المكان الحالي وفي الحاضر ينعي ذلك الزمان البعيد، أو أن النعي رسالة قادمة من ذلك الزمن البعيد لتنعي الحاضر وتحاول أن تفيقه، تفيق ذاكرته، تفيق ابتعاده عن خطواته، تنعي الخطوات المهدورة، والخطوات الضائعة، والخطوات التي لم تخرج إلى نور الطريق، إلى آثار الطريق، لم تدب حتى تكون لها آثار.

علام تنوح يا عم عبيد الذي لا أعرفك؟ هل رأيته في تلك الأكفان؟ أم أنك تنوح على شظايا كوب الشاي؟ أم على رشفاته التي تفرقت بين القبائل؟ أم على الدكة التي ربما أشعلوا فيها النار الآن ليستدفنوا في هذا البرد؟ أم على أمي التي لا أعرف إن كانت حية أم ميتة؟ أم على خطواتي التي وسط هذه الغيطان والتي ربما تدرك أنها خطوات أخيرة، خطوات راحل، خطوات مفارق لا حول له ولا قوة، يضيع في الزمان وفي المكان، كأنه كلمة خرجت في الخلاء فلم يسمعها أحد، أو أنها خرجت وسط الوجوه ولكن المكان تحول فجأة إلى خلاء لا يشغله أحد، حتى قائلها ذاته صار جزءًا من الخلاء لا يُعتدُّ بوجوه، وكأنه صار نسيًا منسيًا، بدون ولادة أو نخلة أو رطب أو بشارة، فلا تنفعه لغة الرمز ولا ينفعه التصريح، لا ينفعه الصوم ولا التصريح، لا يحس بالوجوه المستفسرة ولا يرغب في الكلام مع أحد؟!

## الفصل الخامس

أحسستُ بتلاشي شجاعتِي القديمة، فلقد كنتُ وأنا بين هذه الحقول قديمًا لا أخاف من شيء سواء أكان حقيقيًا أم يطرقُ رأسي من باب الحكايات. وبدأ قلبي ينتفضُ. قشعريرةٌ تسري في بدني كأنني سأواجه مجهولًا أو غريبًا أو كائنًا من عالمٍ يُخرجني من عالمي ويذهب بي إلى عالم آخر لأكون فيه بلا تاريخ وبلا جغرافيا وبلا أنفاس وبلا بصمات وبلا رؤيا، بلا أوراق، *tabula rasa*، سبورة بيضاء، لوح أبيض، وتخيَّلتُ نفسي وأنا قد تجاوزتُ الأربعين من العمر بلا ذاكرة، بلا أرض أحس بها، بلا تاريخ أعرف عنه أي شيء، بلا أهل، بلا أصدقاء، بلا سطور وكتبٍ كتبْتُها حرفًا حرفًا بدمي، بلا مقاطع صوتيةٍ سجَّلتُها على جهاز التسجيل بهاتفِي نبرةً نبرةً.

أحسستُ بشيء يقترب، كائن، خرافة، حقيقة، لا أدري ما هو، لكن بشرة رأسي أو جبھتي لمستُ يدًا أو جسمًا أو أي شيء من هذا القبيل يلتصق بها. شعرتُ بفارق كبير في درجة الحرارة بين هذا الجسم وبين جبھتي. كنتُ أكثر سخونة بكثير وأحسستُ ببرودة هذا الجسم تتسلل شيئًا فشيئًا إليّ، وأخذتُ أنتفض بشدة كآلة حفرٍ تُشبه الشنيور يحاول العامل أو المهندس أن يُحدثَ بها ثقبًا في رأسي في مدينة كبيرة أو قرية صغيرة فتنتفض لأنها لا تستطيع أن تقتحم الرصيف بسهولة، أو كأنني في حالة مشابهةٍ لإنسان ينتفض لأنه احتكَّ بعالم أكبر من عالمنا، بكائنات لا تشبهنا، تُفوقنا قدرةً ورؤيةً وبصيرةً، ونقلَ له جزءًا من هذا العلم وهذه البصيرة وهذا الإحساس وهذه الرؤية النافذة، فلم يستطع جسده أن يتحمَّل كمَّ البيانات أو الطاقة، أو سمَّها ما شئتَ بلغتنا، التي تم نقلها له، فأخذ ينتفض، كأنك تحقن جسمًا بمادة لا يحتملها أو تزرع عضوًا في جسدٍ لم يستطع التأقلم عليه أو يحدث زلزالًا في قلبك، في صدرك، برؤية شخص، أو النظر في عين امرأة كنتَ تعشقها ولم ترها منذ عشرين عامًا مثلًا ورأيَها فجأة أمامك كأنَّ الزمن لم يتحرَّك دقيقةً واحدة طوال تلك السنوات.

أخذتُ قدماي تفقدان اتزانهما. كنتُ أحفظ هذه الطرقات بالغريزة دون أن أرى حاجتي إلى أن أنظر إلى موضع قدمي في كل خطوة. ولكن الخطوات الآن تختلط أمامي كأن المكان نما أو كبر أو غير هَيَّأته، أو كأنَّ زمانًا قديمًا فارقه فأخذ ينتحب ويتعرج إلى أن تغيَّرت

ملاحُ خريطةِ تمامًا، فها هي الطرقات تختلط عليّ، وما كنتُ أظنُّه اتّجاهًا من الطريق وأتّجهُ نحوه تلقائيًا أجده بيتًا وتكاد رأسي تصطدم بجداره...

لم يكن أمامي سوى أن أمسح خريطة أعادتها لي ذاكرتي بكامل تفاصيلها كأنني لم أغب عن المكان يومًا واحدًا. نَحَيْتُ الخريطة جانبًا وربما مسحْتُها من ذاكرتي وربما وضعْتُها في الحَجَرِ الصَّحِّي كي لا تُفَيِّرْسَ قَدَمِي الآن وتُدْخِلَنِي بَيْتَ أَحَدٍ يَضْرِبُنِي بالنار، أو تسير بي على طريقٍ شخصٍ مُطَارِدٍ فيصوّب عليّ النارَ مِنْ على بُعد عشرات أو مئات الأمتار.

وضعتُ الطريقَ الرئيسيَّ نصبَ عينيّ تحت ضوء قمرٍ لا يسطع ولا يختفي وأعمدة إنارة ذات مصابيح كأنها تقول لك إنها بذرة نورٍ لا أكثر وإن الجفاف طال ولم يعد هناك نهر أو مطر، وكثير من الأعمدة نقر الطيرُ بذورها، أو عبثَ الأطفالُ معها بالطوب والحجارة، أو سطا اللصوص عليها أو...

لم يكن الطريق الرئيسي على خارطتي القديمة أو الحديثة، ولا أعرف إلى أين يوصل. فمن الواضح من اتساعه النسبي، فعرضه على الأقل خمسة أمتار ولا يُقارن بالطرق القديمة التي لا يتجاوز عرضها مترًا أو مترين – من الواضح أنه طريق جديد ويربط بين البلدة وبلدات أخرى، بالرغم من أنني أدرك أن بُعدَ بلدتنا لا توجد سوى المقابر وبعدها الصحراء. وربما هو الطريق الرئيسي القديم، فالترعة الوحيدة ها هي بجانبه، ولا توجد ترعة غيرها، لكنه تم رصفه وتم الاستيلاء أيضا على جانب من الترعة وجانب من الأرض لتوسيع الطريق مترًا من جانب ومترًا من الجانب الآخر. أعرف أيضا أن الخضرة انتشرت في تلك الصحراء بعد المقابر بشكل كبير، وكنتُ أسير على عكس اتجاه البلدات الأخرى.

لم يكن المشهدُ ينقصه سوى تلك الكلاب التي لا أعرفُ كيف أتعاملُ معها. فبالرغم من أن كل الحيوانات أصدقائي، كانت الكلابُ تقفز عليّ من جانب الطريق كأنها لا تُبصرُ بيني وبينها سوى العداوة، ولم يستطع أبي ذات مرة أن يحتمل تحرُّشَ كلبٍ كاد يأكلني فقفزه بطلقة من بندقيته القديمة أردته قتيلا بعد عواء بصوت ممطوط لم يستمر...

\*\*\*

لا أعرف لماذا تداخل هذان الحدثان؛ هل لأن شهر أغسطس يجمعهما؟ يتراءى لي الآن كما لو أنني سجّلتُ هذا المقطع الصوتي بعد اكتمال هروبي ونجاتي، بعد أن صرتُ ذِكْرًا مَذْكُورًا، بدلا من أن أصبح نَسِيًّا مَنْسِيًّا، وبعد أن اضطررتُ لأن أعود للجبّانة دون أن أدخل جهينة، وكأنني أحسستُ بأنني لا بدّ أن أسجّله بعد أن أنساني إياه هول الموقف! من أنا؟ ولماذا تتداخل الأحداث والأزمنة هكذا كأن رأسي ذاكرة احتياطية كي لا يضيع كلُّ شيء؟

هما حدثان. الحدث الأول هو ذكرى وفاة نجيب محفوظ، الذي أعرف أنه في الحقيقة ذكرى ميلاده وأنها في ديسمبر وليست في أغسطس، حيث يذهب مجموعة من أصدقائه الذين أعرف بعضهم إلى مقبرته للاحتفال بذكراه والاطمئنان عليه أو طمأننته على أنه في القلب وأن الخناجر الحقيقية أو المجازية التي تطعن رقبتَه لا أثر لها. والحدث الثاني هو ذكرى قتل ابن خالي اختناقًا على يد بعض رجال الشرطة، ذكرى فجور ما يُعرف بحادث عربة الترحيلات حيث أطلق بعض رجال الشرطة قنابل الغاز على المُرحّلين داخل عربة الترحيلات فماتوا اختناقًا. أعرف أن موعد هذه الذكرى لم يحل بعد ولم يمر عليه عام كامل. وما تداخل أيضا أنني أدرك أن مدفنه كان في الجيزة، لكنني أراه الآن في جهينة – بلدته وبلدتي بسوهاج – ويبدو أننا – من نحن؟ لا أعرف بالضبط – نظّمنا حدثًا على الفيس بوك لمحبيه وأصدقائه والمتعاطفين معه ومع قضيته، مع أنني أدرك تماما أن الكل بدؤوا يخشون أن يظهروا في أي مناسبة من هذا القبيل، وأدرك تماما أنني أتعاطف مع موت ابن خالي ولا أقبل سلوكه الذي أوصله إلى هذه الحالة، ولن أخوض الآن في سبب المجازر ولا في التمثيل الذي صاحبها، لأنني اعتزلتُ كلَّ شيء بعد أن هربتُ من سراديب مكاتب الإرشاد التي كنتُ مُحتَجَرًا فيها.

بدا المشهد بسيطًا جدًّا: مقابر قروية بلا أسوار وبلا حدود. رمال ممتدة هنا وهناك، وأكوام من الرمال تعلوها بعض الأحجار أو مبنية بالطوب غير المحروق. قبور صغيرة تتناثر أو تزدحم هنا وهناك. ولاحظتُ أن كثيرين من أهل بلدتي قد حضروا – أكثر بكثير

ممن كانوا قد أعلنوا من قبل على الفيس بوك بأنهم سينضمون إلى إحياء هذه الذكرى. استغربت الأمر، إذ أن الكثيرين من أهل البلدة كانوا يتخوفون من مجرد استلام جثة ابن خالي من مشرحة زينهم خوفاً من أن يتعقّب أمن الدولة كل المشاركين في تشييع جنازته، وبالتالي استبعدوا فكرة أن يُدفن في جهينة أصلاً، ولولا إصرار البعض – ومنهم أنا – على ضرورة دفنه لكانوا قد تركوه في المشرحة ضمن المجهولين.

نظرتُ نظرة غير راضية إلى نفسي؛ فلقد كنتُ من متبلدي المشاعر ساعة معرفتي بالخبر من الجرائد الإلكترونية قبل أي أحد من البلدة، ولم أكن أعرف بماذا أحس، وهل عليّ أن أحزن لمقتل ابن خالي وأتناسى أي شيء آخر؟ أم أصير متبلداً أمام موت شخص قُتل لأنه حاول الهروب من العربة حسب الرواية الرسمية أو لأنه كان في مكان مشبوه ولم يستجب لمكبرات الصوت التي تنادي على المتواجدين فيه بالخروج الآمن. روايات كثيرة وأقوال متداخلة، وما تأكد في وسطها أنني كنت لا أحس بشيء ساعتها، ولكنني رفضتُ فكرة عدم استلام جثته وأصررتُ على أن يذهب أهله وأنا معهم لاستلامه ودفنه كما ينبغي لميت أن يُعامل.

وها أنا بعد خروجي من شاشة التلفزيون وشاشة الجرائد الإلكترونية أراه يتراءى على الطريق، أو تتشكل الأحداثُ وسط هذه الغيطان التي لا أعرف كيف استحضرَتِ الجبّانة ونقلتها إلى هنا، فأنا لم أصل إلى الجبّانة بعد وما زلتُ وسط الغيطان، وها هي الأحداث تبدو في الجبّانة، وأدرك أنها جبّانة تختلف عن تلك الجبّانة التي أعرفها موجودة غرب جهينة، وفي نفس الوقت تظهر لي على أنها الجبّانة نفسها...

أراه، وعليّ أن أحيي ذكراه كما ينبغي بالرغم من أنني أدرك أنها لم يَبْنُ أو أنها بعد. أرى وجوها أعرفها هنا وهناك، ووجوها أكثر لا أعرفها، لكن ملامحها تشي بأنها من البلدة ومن البلدات المجاورة. أبتسم بالرغم من صرامة المشهد وأقول لنفسي:

- هذا حدثٌ فارقٌ في تاريخ بلدة أو مدينة صغيرة، حدثٌ يجتمع فيه الناس على هدف واحد تكون أساسه دعوة على الفيسبوك.

ولم أرَ في وجوه الناس خوفاً أو في عيونهم توجُّساً.

تغيَّر المشهد قليلاً ووجدتُ مقابرَ ذات أسوار. في البداية كان سوراً واحداً وبداخله امتداد لا أعرف إن كان نهائياً أم لا نهائي، بالرغم من أنني أعرف جغرافية المكان جيّداً، وأدركُ نهاية الفراغ بالبيوت جهة الشرق وبالأراضي المستصلحة من جهة الغرب. امتداد قد يحس فيه المرء بالضياغ، وفي الوقت ذاته قد يحس بأنه في بيته، كأنّ الضياغ بيتٌ وكأنّ البيتَ لانهائيّةً، سكنٌ، وربما لهذا السبب أطلقوا على الموتى "سكان القبور". هل أطلقوها على الموتى أم على الذين بلا مأوى في الحياة فاضطروا لأن يجاوروا الموتى ويقلقوا راحتهم أو يسكنوا مكاناً لا يطمئنهم، ولكنهم يتحملون مخاوفهم بدلاً من التشرُّد في الشوارع وقيام البلديّات المتعاقبة بإخلائهم إلى السجون وإخراجهم ليعودوا إلى السجون أو المقابر مرة أخرى وهكذا؟

بدا تدريجيّاً كأن هناك معالمَ للمكان، كأن هذا البناء داخل السور قد تحوّل إلى ما يشبه الشُقُقَ أو الحوْزاتِ، لكنها ذات بناء خاص: صف حمامات صغير مفتوح الأبواب، حمامات بلدية حجم الواحد منها لا يزيد عن حجم الباب الذي يغلقه، وباقي المكان مقسّم إلى ما يشبه الغرف الطولية. أعرف أنني، في هذه الصور التي تتراءى لي، مُنظَّم هذا الحدث أو على الأقل من المبادرين به، أو هكذا يقول منطق الصور التي تتراءى، بالرغم من أنني أدرك أنني وحدي وسط الغيطان أهرول على طرق لا تنتهي وكأن المكان كلما خطوت خطوة عليه يزداد اتساعاً وابتعاداً وامتداداً، كأن الحركة لا تولّد إلا الضياغ في هذا المكان الأقرب إلى الفنتازيا والعبثية بالرغم من أنني أدرك أنه مكان واقعي في بلدي التي أظن أنني أعرفها جيداً الآن، مع أنني متأكد من أنني كنتُ أعرفها بكل تفاصيلها معرفة وثيقة من قبل. ولا أدري لماذا يتحوّل التأكّد إلى ظنّ!!

وبالرغم من ذلك، كان هناك ما يشبه المُفتّش أو الذي يستلم التذاكر أو ما شابه ذلك. فأدركتُ أنني يجب عليّ أن أُبرِزَ تذكرة الدخول. وعرفتُ أيضاً أن هناك أربعة أنواع من الاشتراكات – أي اشتراكات في هذا المكان؟ لست أدري، لكن يبدو أن الصور كان لها منطقها الخاص، وها هي الاشتراكات انقسمت إلى أربعة أنواع، فلقد كان كل اشتراك له

شكلان، في المقاسات؟ في الأطوال؟ لا أعرف بالضبط، لكنني فهمتُ أن هناك أربعة أحوال، كيف تحولت الاشتراكات إلى أحوال؟ لست أدري أيضا. وتنقسم هذه الأحوال إلى نوعين من التذاكر أو الاشتراكات أو ما شابه ذلك. وما علاقة ذلك بانقسام الكوب إلى أربعة أكواب، وانقسام كل كوب منها إلى أربعة أكواب؟ وما دلالة الرقم أربعة هنا ودلالته فيما فعله إخوتي؟ هل كان الضياع سمةً من سمات الفضاء أم البيوت أم المقابر؟ كأن الحكاية بلا ذاكرة، والصورة التي تمضي لا تعود ولا تستطيع أن تستحضرها في ذهنك لتربط معناها بمعنى ما هو مائل أمامك.

كنا في البداية أو في الوسط. لا أعرف على وجه اليقين. كان هناك بجانب الحمامات التي لا أعرف لماذا كانت مخصصة للرجال.... ماذا كان هناك؟ ها هي الصورة تلاشت وأخفت باقي الجملة أو العبارة معها. بحثنا عن حمامات للنساء. لم نجد شيئا. قالت زوجتي – ولم تكن بحاجة إلى قضاء حاجتها في ذلك الوقت – وهي تشير بيدها إلى مساحة لا أعرف إن كانت مواجهة لحمامات الرجال أم لا، ولكنها لها نفس التقسيم كأنها كانت مخصصة لبناء حمامات مماثلة ولكن أحدا لم يفكر في إتمام بنائها.

ماذا قالت زوجتي؟ هل تغيرت الصورة هنا أيضا أم أن من يقوم بالمونتاج عبثي إلى حدّ السّفه؟ ربما يعود كلامها في صورة أخرى. في الصورة الحالية، تشد زوجتي ستارة ما، ولا أعرف إن كانت هذه الستارة موجودة من قبل أم أن زوجتي وضعتها وأغلقت المكان تماما وقالت:

- نبني هنا حمامات للنساء، على الأقل سنستخدم الستارة مؤقتا إلى أن نبني شيئا.

كانت الستارة مرتفعة عن الأرض قليلا بحيث يظهر كعب السيدة التي تدخل هذه الحمامات ولا أعرف إن كانت هناك مياه أم لا. هل هذا وقت مناسب للضحك؟ وهل هذه قضية للتأمل أصلا؟ أم أننا تم استدراجنا إلى هناك كأننا انخرطنا في حدث أو نهاية مفتوحة أو باب يفتح على الخواء. الخواء أم الخلاء؟

وفي الوقت ذاته تغير المشهد لأظّل أنا وزوجتي وابني وبعض الأصدقاء في الخواء، وفي ذات اللحظة أرقد أنا على سرير في غرفة فسيحة داخل المقبرة التي يُدفن فيها ابن خالي في جهينة وليس في الجيزة. كنتُ مستيقظا ونائما في نفس الوقت. وكان محمود ابن خالي الذي هو ابن عم جمال ابن خالي الميت نائما بجواري، وكانت زوجتي وبعض النساء يجهّزن شيئا أو يقمن بمراسم معينة خاصة بشيء لا أعرفه، وربما أعرفه ولا أذكره، وربما كان من يقوم بالمونتاج يخفي ما يقمن به.

دخل صديق لي يعرفني ويعرف عائلتي، ولكنه كان في اللحظة أصغر سنًا، أو أكبر من تاريخ معرفتي به، أي أنه كان على حالة تسبق معرفتي به، وفي اللحظة ذاتها أدرك أنني أنا وهو نعمل سويا في مكان ما بالخليج. كان يحمل حقيبة منتفخة ربما بالكتب أو الأوراق، أو ربما كان بها "غيار" له، فيبدو أنه على سفر وكان يمسك في يده بساندويتش.

استغربتُ منظره: فيبدو كأنه في التوقيت الحالي، وفي نفس الوقت كأنه كما كنت أراه منذ عشر سنوات في مكان عملنا سويا في مصر ولم تتوثق معرفتي به حينذاك. كان مرهقا ويأكل الساندويتش. وكان يراني أنا نائما ويرى أحدا نائما بجانبني لم يعرفه ليكتشف أنه محمود زميله في العمل أيضا ويعرفه جيدا. قال لي:

- ناولني سيجارة من العلبة التي هناك.

اتضح أنها بجانب السرير الذي كان عاليا وذا أعمدة كأنه سرير قديم، وفي الوقت ذاته كان واطئا كأنه بلا أقدام كسرير حديث. أدركتُ أن السرير بجانبه كومودينو وأن صديقي عبد الحميد هذا صاحبُ المكان، على الأقل كان يتصرف كأنه صاحب المكان، وأن هذا السرير سريره وهو ليس ضيفا قادمًا من بلدة بعيدة إلى جهينة التي كان في الصورة السابقة يراها لأول مرة. أعرف أنه لا يدخن السجائر وأنه توقف أيضا عن تدخين الشيشة ولا يدخنها إلا عندما يجيء ليزورني في تلك المدينة التي نسكن فيها خارج مصر، كنتُ أراها "تلك المدينة" في الصور أمامي بالرغم من أنها "هذه المدينة" التي أحس بها أيضا: كيف يتجاوز الإحساسان المتناقضين؟ كيف أراها "هذه المدينة" و"تلك المدينة" في نفس الوقت، وكيف أرى ما في الصور يدور فيها وأنا بين هذه الغيطان التي تبعد عن هذه/تلك

المدينة ألف كيلومتر على الأقل؟ ومتى سافرتُ أنا خارج مصر أصلاً؟ أم أن منطق الحدث الذي لا أعرفه يقول بأنني لا بد أن أكون موجوداً خارج مصر؟ أم أن مصر هي القاهرة وأنا أسكن في الجيزة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن المفترض أنني ألتقي الدكتور عبد الحميد في السويس حيث نعمل سوياً؟ ولكن السويس خارج "مصر" أيضاً بمعنى القاهرة؟ لكنني أنا شخصياً لا أستخدم كلمة "مصر" للكلام عن القاهرة؟ ما كل هذا التداخل؟!!

لا أدري إن كنتُ مددتُ له سيجارة أم لا، لكنني فكرت ساعتها أن زوجتي لن تتأخر عن أن تشعل له الفحم وتجعل ابني يقدم له الشيشة لتعود هي إلى صفوف النساء وتكمل ما لا أدري ماذا يفعلنه. لم يكنَّ يجهّز شيئاً. وكنتُ في حالة لا تساوي الجوع ولا تساوي الشبع، كأنني لا أعرف ما هو الأكل أصلاً وأستغني عن كل ما يطلقون عليه "مَقَوَّمَات الحياة"، وفي الوقت ذاته – كي لا يجيء مفسرٌ متسرّع ويقول إنني ميت – لم أكن أحس بالموت. كنتُ واعياً بكل شيء وكنتُ أستريح لحظة، ربما لأصطاد هذه الحكاية التي تساعدني في التخفف من إحساسي بالفزع وسط هذه الغيطان التي أوشكتُ أن تتحول إلى أشباح حقيقية.

تغيّر المشهد أو عاد إلى المشهد السابق عندما كنتُ أنا وزوجتي وابني نقف عند المكان الذي اقترحنا أن يكون حمّاماً للسيدات. أراها الآن "اقترحنا" بالرغم من أنني أذكر أن زوجتي هي التي اقترحت ذلك. ولا نعرف إن كنا خرجنا من باب أم أن المكان تحوّل فجأة إلى خلاء في ذلك الوقت. كنا نتأمل الوضع. وسمعتُ ابني الصغير يقول:

- من أنت؟ من أنت؟

قالها مرتين واختفى الصوت واختفى الجسد واختفت كل آثار "يحيى" ابني. كان الجو نهاراً، لكن بمجرد أن كرر يحيى السؤال انقلب الجو إلى ظلام دامس. أسرعتُ نحو الموضع الذي كانت زوجتي تقول إنه يصلح لأن يكون حمّاماً للسيدات، ولكنني اصطدمتُ بجدار يبدو أنه أقيم على عَجَلٍ. وعندما دققْتُ بيدي عليه تبينْتُ أنه في الغالب عبارة عن أبواب ألوميتال مقامة في صف حمامات بجانب بعضها البعض أو في صف أية أبنية مقامة بجانب بعضها البعض. لكن المسافة الصغيرة بين الباب والباب تقول بأنها حمامات، فلقد كان الباب يتأرجح أو يدخل قليلاً من أثر الدق ثم يعود كأنه مُغلَقٌ بترباس من الداخل. لم يكن أي باب يريد أن

ينفتح. أخذتُ أدق على كل الأبواب، صارخاً في هستيرية. وفجأة انفتح باب دون أن أستطيع أن أرى شيئاً. وما أن مددتُ يدي لأتحسس ما بداخل هذا الظلام حتى وجدتُ يدًا تريد أن تسحبني بقوة للداخل في صمتٍ كأنها ستوقعني في هاوية لا أعرف جدواها بعد كل الطبول التي دَقَّتْ على الرؤوس، أو كأنها ستسحبني إلى موضع أو مكان ما كي تزداد سوداوية الوضع كله لأنني ربطتُ بين الأبواب المغلقة للتو والظلام والأيدي التي تسحبني وابني الذي تم اختطافه، كأن اختطافه عقاب لي على أنني فكرت في إحياء ذكرى جمال ابن خالي الذي قتله غياب أناس لا يعرفون الأمن، فتراجعتُ محاولاً أن أسترشد بصوت زوجتي التي كانت هي الأخرى ضائعة مثلي في هذا الخلاء والخواء وبراقش التي لا تتعلم درساً ولا تعي شيئاً.

ناديتُ على ابني:

- يا يحيى. أين أنتَ يا يحيى؟

لم أسمع صوتاً في البداية، ولكنني عندما كررتُ النداء، يبدو أنه سمعني وردَّ عليّ:

- أنا هنا يا بابا.

سألته:

- في أي مكان بالضبط. صِفْ لي المكان حولك.

قال لي:

- لا أعرف يا بابا. لا يوجد شيء حولي. خطفني رجل بذقن.

استغفرتُ الله العظيم وسألتُ يحيى:

- هل قال لك شيئاً؟ هل طلب منك أن تبُلِّغني بشيء؟

قال لي:

- شَتَمَكَ يا بابا. وقال إنك تحتفل برجل اسمه نجيب محفوظ.

قلتُ له:

- لا تقلق يا حبيبي. كلُّمني من هاتفك وخلِّ الرجل يكلمني لأتفاهم معه.

بكى وقال:

- أنا آسف يا بابا. أخذ مني الهاتف ومشى.

قلتُ له:

- سأتصل به. لا تقلق. سأعرف منه مكانك حالا.

اتصلتُ على هاتف يحيى. رنين جرس متواصل دون أن يردَّ أحدٌ. صرختُ. ردَّ عليّ

صوت زوجتي:

- الحق يا راوي، يحيى مربوط في الحَمَّام.

جريتُ نحو الحَمَّامات. وفككتُ الحبل المقيّد به يحيى. واحتضننّه أنا وزوجتي. قال

لي:

- أنا آسف يا بابا. كان أقوى منّي. خذ هذا الكتاب. أعطاه لي ذلك الرجل وقال لي:

قُلْ لأبيك: حَلِّ نجيب محفوظ ينفعك.

كانت رواية "يوم مقتل الزعيم"، وكانت عليها آثار براز، وبعد الغلاف مباشرة بعض

الشعر المقصوص من ذقن الرجل الذي اختطف يحيى في الغالب. قلتُ ليحيى ونحن نخرج

به:

- سلامتك يا حبيبي. لا تقلق. نحن في الجبّانة الآن.

انتقلَ المشهدُ إلى الغرفة والمقبرة. وكنا نقرأ بعض الآيات القرآنية ونختمها بالفاتحة.

ضبط أحدُ الصحفيين الكاميرا الخاصة به ليلتقط بعض الصور. وفجأة أسرع نحوه محمود

ابن خالي وخطف منه الكاميرا، قائلا:

- عاداتنا وتقاليدينا لا تسمح بأن نلتقط الصور عند المقابر ولا في المناسبات. لا

يمكن أن نكشف أمورنا للصحافة.

لا أدري لماذا فعل ذلك، فأنا شخصيا لديّ الكثير من الصور التي التقطناها لي

ولزوجتي وأولادي عند قبر أبي. وصور زفافي نشرها المرحومُ فهد والأستاذة إيفون

المسؤولة عن صفحة مناسبات في ملحق بجريدة الجمهورية. ولا علاقة للعادات والتقاليد بأي شيء من هذا القبيل. بحثت عن عبد الحميد، لم أجده. دخلت إلى الغرفة، وجدته جالسا يدخن الشيعة، سألته:

- لماذا لم تُحيي الذكرى معهم؟

قال لي:

- أنا في حالي، ولا علاقة لي بالسياسة. جئت فقط لأستريح على الطريق وأدخن معك الشيعة. أنتم مثقفون مع بعضكم البعض، وعلماء النفس يقولون...

وضحك. ضحكك بالرغم من أن الموقف لا يحتمل. فهو متخصص في علم النفس. وكنت أتكلم معه من قبل وفي وسط كلامي قلت له: "علماء النفس يقولون..." وذكرت له رأي علم النفس في الموضوع الذي كنا نتكلم فيه، فضحك ساعتها وقال:

- هل أنا كيس جؤافة؟

ضحكتُ وقلتُ له:

- لا سمح الله يا دكتور.

صمتُ قليلا وقلتُ له:

- لكن يا دكتور لم أعرف أنك بخيل. معك كل هذه الجؤافة ولا تعطيني واحدة؟!!

طلبتُ منه أن يخرج معي إلى الرجال، فسألني:

- هل انصرف الصحفيون؟

قلتُ له:

- لا أعرف، ولكن الدكتور محمود منعهم من التصوير.

ابتسم وسحب نفساً طويلاً من الشيعة وقال:

- يمكننا الآن أن نخرج كي نقوم بالواجب مع أنني لا أحبُ كلامَ المثقفين. هيا بنا.

قلتُ له ضاحكًا:

- اعتبرْهم أكياس جَوّافة.

لم يضحك، وقال لي:

- احترمُ حُرمة المقابر يا غالي. ألم أقل لك إنني لا أحبُّ كلامَ المثقّفين؟

حيرني كلامه، ولكنني لم أشأ أن أشغل نفسي بالعلاقة بين احترام حرمة الموتى وكلام المثقّفين، ووجدتني أقول له:

- عندك حق. أنت كلامك صح. هيا بنا.

نظر إليّ نظرة طويلة وقال:

- نحن تركنا "هيا" منذ دقائق. لماذا تتلّكأ في الذهاب وأنت الذي دعوتني لنذهب إلى الرجال؟

لا أدري لماذا تركته وأسرعْتُ مبتعدًا. أحسستُ أن زوجتي في خطر. وعندما وصلتُ إلى خارج السور الذي بعد الحمامات، وجدتُ أشخاصًا بسيوف يقفون عند السور، وفي الغالب بينهم الذي خطف ابني يحيى. سألتهم:

- مَنْ فيكم الذي قيّد ابني وأعطاه رواية "يوم قتل الزعيم" ليوصلها لي؟

نظروا إليّ نظرة تحدّ وقالوا جميعًا:

- نحن الذين فعلنا، هل لديك مانع؟

صمتوا قليلًا، ثم أكملوا كلامهم:

- أم عندك عُذْرٌ شرّعي؟!!

وضحكوا جميعًا ضحكة أحسستُ بأنها مثل الضحكات الشريرة في الأفلام. ترددتُ ما بين الإقدام والتراجع، وقررتُ أن أقف في مكاني دون أن يصدر عني ما ينم عن معاداتهم، وقلتُ لهم:

- لا، ليس لدي مانع ولا عذر. ولكن هل أنتم من جهينة؟

ضحكوا إلا واحد منهم تجهّم تماماً، ونظر إليهم نظرة بترت ضحكاتهم، فانحنوا للوراء ومدوا أياديهم للوراء أيضاً، عكس الانحناء للأمام وتحريك اليد للأمام ولأسفل كعلامة على الاحترام أو التقدير أو التحية أو إفساح المجال لشخص كبير في المقام ليقوم بشيء ما أو يقول كلاماً ما. أمال الذي يبدو أنه كبيرهم رأسه نحو اليمين، ويبدو أنه فعل ذلك كردّ على لغة أجسامهم. ثم قال لي:

- ألا تذكرنا يا عبيط؟ لا تغضب هكذا. عليك أن تستمع لكلامي دون أن يتكلم جسمك هكذا. بالنسبة لجهينة، فهذه نكتة بانخة. وأعرف أنك تقصد الاستهزاء بقولك إننا من جهينة.

وأخرج خريطةً للكرة الأرضية من جيبه وأراني إياها. نظرتُ فيها، وجدتُ أنها هي نفسها الكرة الأرضية ولكن ملامحها متغيّرة، وكأنها خلت من الدول وصارت دولة واحدة ذات تقسيمات غريبة. ثم أعاد الخريطة إلى جيبه وقال وهو يشير إلى جيبه:

- نحن هنا.

سألته وأنا أرسم على وجهي ملامح التأدّب:

- هل تقصد أنتم من "هنا"؟

وأشرتُ إلى الخريطة التي في جيبه. قال لي:

- قلتُ لك من قبل إنك عبيط. وأخرج من رأسك ما فهمته ساعتها على أن العبط نقيض الشيخوخة. أنا أخاطبك على قدر عقلك إن كان عندك عقل. نحن هنا وهنا نحن. كلامي واضح، فلا تؤوّلُه ولا تفسّرُه.

قلتُ له ببرود شديد:

- لم تقل لي من قبل إنني عبيط.

قال لي بتحدّ:

- يشهد عليك الكفن يا مزور ومارق وناكر للجميل.

قلتُ له:

- هل يمكننا أن نتفاهم بالعقل؟

ضحك وأشار إلى الملتقيين حوله فضحكوا أيضا، وقال:

- العقل مضلل. هل هناك إنسان مؤمن يزور التاريخ؟

قلتُ له ولم أستطع أن أتحمّم في غضبي:

- أي تاريخ ذلك الذي تقول إنني زورته؟

نظر إلى رفاقه وقال:

- شوفوا الصفاقة يا رجال. بعد أن سرق أكفان الأطفال مع أننا أكرمناه عندما أوقفنا

وأجبنا على كل استفساراته، وطمانأه وكان هاربا، وفسّحناه على النعش وكان

مكتنبا، ويجيء الآن ويحتفل بنجيب محفوظ!!

قلتُ له لكي أقلب عليه منطق كلامه ذاته:

- ولكنني أحيي ذكرى ابن خالي الذي قُتل بسببكم!

بهتت ملامح وجهه قليلا، ولكنه سرعان ما استعاد صرامته وقال:

- لم نضربه على يده ونطلب منه الذهاب إلى بذرة التاريخ الجديد.

ولم يعطني فرصة للردّ، فلقد استداروا جميعا كأنني غير موجود. وأخذوا يبنون

بالحجارة غرفة صغيرة مثل حجم الحمامات التي رأيتها من قبل في الجبانة. وتوقفوا عندما

وصل الجدار إلى ارتفاع متر تقريبا، مع أن هناك المزيد من الحجارة التي يمكنها أن تكمل

بناء الغرفة. ووجدتهم يلصقون غلاف رواية "اللس والكلاب" وغلاف رواية "يوم قتل

الزعيم" وغلاف رواية "أولاد حارتنا" بجدران الغرفة ولكنهم يطمسون الكلمة الأولى من

غلاف كل رواية. قال كبيرهم:

- لا بد أنه سيهرب إلى هنا وسيختبئ كالكلب في هذه الغرفة. وساعتها سننقضُّ عليه انقضاض رجل واحد ويخرجُ الجبلّاء ليقص رأسه بهذا السيف. وستكون الشرطة شرطتنا، وسيكون القضاء قضاءنا، وسيكون الجيش جيشنا. وإلى أن يأتي ذلك اليوم، علينا...

وتوقّف عن الكلام وكأنه يراني لأول مرة. ووجدتهم يتحركون نحوي بحركات تمثيلية بطيئة مثل تلك الحركات التي كان يقوم بها إخوتي. ففررتُ منهم، والغريب أنهم لم يلحقوا بي وإنما دوّت ضحكاتهم عالية في أرجاء الجبّانة.

ولكنني عندما عدتُ إلى المتجمعين لم أجد أحداً، ووجدت لافتة معلقة مكتوب عليها: "المؤلّد انفضّ". ووجدت زوجتي ويحيى جالسين في ركن الغرفة. سألتهما:

- ما الذي يجلسكما هكذا؟

قالت لي زوجتي:

- أين كنت؟ ولماذا تركتنا لأولئك الكلاب؟ لو كان في سيارتهم مكان لأخذونا أسرى. لكن ربّنا سترّ عندما سمعوا صوتَ سيارة شرطة بعيدة. ربنا يحفظهم، سيارة الشرطة وكل الشرطة دنيا وآخرة.

هل كنتُ مُغيّبا؟ كيف لم أشعر بكل ما حدث؟ لم أسمع صوتاً ولم أرَ أحداً. وهاتفي معي ولم يتصل عليه أي أحد، لا زوجتي، ولا أصدقائي. سألتُ زوجتي بعد أن اعتذرت لها وضممتُها هي ويحيى وجلسنا سوياً على السرير في الغرفة:

- كيف ومتى حدث كل هذا؟ ولماذا لم تتصلي بي؟

قالت لي وما زالت آثار الرعب بادية في عينيها:

- أخذوا الهواتف من كل الناس. طبّوا علينا بالسيوف وجمّعونا في الساحة هناك.

قلتُ لها:

- كان عدد الناس هنا كبيراً، فكيف لم يفعلوا شيئاً معهم؟

قالت لي وهي تحاول أن تبتسم:

- ألم يقل المتنبي صديقك: "السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكُتُبِ"؟

لم أفهم هذا البيت بهذا المعنى من قبل، ولم أكن أدرك أن المثقفين والصحفيين جنباء إلى هذا الحد. ولكنني تذكرتُ جبني أمام سيوف أولئك الذين يضعون خريطة مشوّهة في جيوبهم، فقلتُ لها:

- المهم أنكما بخير. أين ذهب الباقون؟

قالت لي وهي تضحك:

- جروا جري المُطَهَّر يوم طلوعه على المعاش. ما أن رفع الإرهابيون سيوفهم جرى الجميع هاربين.

سألتها:

- ولماذا لم تهربي معهم؟

قالت لي بعتاب:

- هل هذا كلام؟ هل أفوتك وأهرب يا حبيبي؟ قلتُ: إما أن نعيش سويًا أو نموت سويًا.

\*\*\*

أين أنتِ يا راوية؟ وأين يحيى وحياة ونيلاء؟ كأنني أراكم أمامي الآن، وها أنا أجري وسط الغيطان ولا أعرف إن كان جريي جري المُطَهَّر يوم طلوعه على المعاش، ولم أسمع بهذا التعبير من قبل إلا على لسان راوية، فالتعبير الأصلي يخصّ الفضيحة، في مسرحية لفؤاد المهندس، "فضيحة المطاهر يوم طلوعه على المعاش"، لكن ما معنى حال المثقفين والصحفيين وهم يجرون "جري المُطَهَّر يوم طلوعه على المعاش"؟

أفبقُ على صوت ذلك الذي كانت معه الخريطة المشوّهة في المقابر يقول لي:

- ألم أقل لك: انصرف.

أنظر إليه بتحدٍّ كأنني لم أكن خائفاً منه منذ دقائق، وأقول له:

- عينك حمراء

يخبئ عينيهِ ويقول لي كمن تفاجأ:

- هل رأيتهَا؟

أقول له:

- نعم رأيتهَا ورأيتهَا؟

يمثّل أنه متفاجئ أيضاً ويقول:

- ألا يظهر عليّ أنني متنكر؟

أقول له بحدّة:

- أين ذهبتم بالأطفال؟

يقول لي باستغراب:

- أي أطفال؟

أقول له بسخرية:

- الأطفال الأحياء الذين كنتم تحملونهم على النعوش.

يقول لي وهو يضحك:

- يا رجل، هل صدّقت؟ كانت حفلة تنكُّريّة، مثل تلك الحفلة التي أقمتوها أنتم على المقابر.

إذن هو نفسه الذي كان مع الذين يحملون النعوش. وهو نفسه الذي رأيته في الجبّانة. والحدثان حقيقيان، مع أنني لا أجد أي أثر لزوجتي ولا لابني ولا لبنتي. أقول له بجديّة تامة:

- قف عندك.

وأنهض من جلستي تحت الشجرة على الطريق، وأمسك به، فيستكين لي وهو يضع  
يده أمام وجهه، كأنه يخشى أن أضربه. وأقول له:

- أين هاتف ابني وهاتف زوجتي؟

يقول لي:

- لن تصدّقني إذا قلتُ لك الحقيقة.

أقول له:

- مع أنني لا أصدقك، سأصدقك هذه المرة لوجه الله.

يسألني بجدية تامة:

- هل تعرف الله؟

أقول له بتوبيخ:

- الله ربي، يا فالح.

يقول لي:

- سأقول لك الحقيقة إذن.

أقول له:

- وأنا في انتظارك.

يقول لي وهو يشير بيده للوراء بامتداد الطريق المجاور للترعة:

- أوقفتني سمكة هناك وأخذت مني كلّ الهواتف.

أقول له:

- قلّ كلامًا غير هذا.

يقول لي بمسكنة:

- وأنا قلتُ لكم إنك لن تصدقني.

أقول له:

- وأنا آسف على أنني قلتُ لك إنني سأصدقك هذه المرة. يمكنني أن أصدق السمكة.

تظهر عينه الحمراء ويقول لي بتهديد:

- ستطلع على المعاش قريباً بعد أن نطاهرك يا بتاع نجيب محفوظ.

تلقت انتباهي كلمة "بتاع" العامية التي يستعملها وسط كلامه، ولكنني أتجاهل استعماله لها وأقول له مهدداً:

- سنرى من الذي سيطلع على المعاش.

يقول لي بمسكنة:

- يا بيه، لو على هاتف ابنك وهاتف زوجتك، ها هما. لكن لا توجد فيهما شبكة.

يبدو أن زوجتك ذكية وبلغت الشركة ففصلت الخدمة عنهما.

ويرمي الهاتفين تجاهي ويفرّ هارباً. أجد نفسي أجري وراءه. أحمد الله أنني جريئ،

فها هو انفجار في الموضع الذي رمى فيه الهاتفين. أجري إلى أن تنقطع أنفاسي، فأجلس على حافة الطريق وأنا أسمع صدى صوت ذلك الذي يبدو أنه إرهابي:

- يا بتاع نجيب محفوظ، يا بتاع نجيب محفوظ.

## الفصل السادس

لو كنتُ مررتُ على هذا الموضع من الطريق في صباي أو في مقتبل الشباب لكانت القشعريرة انفجرتُ في بدني وألقتني في التربة بجانبه أو نغزتُ خطاي لأفراً بعيداً. لا يهْمُ أن أرى أو لا أرى، فالخوف إحساس قد ينبع من الخارج ويطرسب في البدن أو ينبع من البدن وذكرياته وينعكس على الخارج.

لكنني ها أنا بعد كل هذه السنوات من الانقطاع عن هذا الطريق أمرُّ عليه ولا أحسُ بخوف ولا برهبة. أجلس على جانبه، كما لو كان طريقاً عادياً! هل الرعب الذي رأيته ورائي وأنا أجري بعد تفجير الهاتفين محاً من داخلي أي رعب آخر؟ هل أضاف رعباً أكبر في ذاكرتي فتلاشى الرعب القديم؟ يتذكر جلدي القشعريرة، ويشعرُ بالتعب. تستحثني القشعريرة القديمة لأن أنهض وأواصل الجري لأبتعد عن هذا المكان. وفي الوقت ذاته يستحثني جسمي على أن أواصل الجلوس. أحسُّ بأن ماء التربة البارد في هذا الشتاء يُسرَّب قدرًا من الدفء، كأن الأيام تختلط ببعضها، كأنها تمتزج وكأنني صغير. أجلس على جانب الطريق جهة الغيطان. أنظر للتربة وأتلفَّت بامتداد الطريق رجوعاً وبامتداده صعوداً أو خروجاً بنظرة محايدة تكتفي بالتأمل.

- ما الذي رماك على هنا؟

تخيَّلتُ أنني أسأل نفسي أو أن ذاكرتي تستحضر مشهداً قديماً أو حتَّى مشهداً مستقبلياً يتشكل أمام عيني.

- يا أستاذ، ما الذي حدث هناك؟ اعذرني؛ لم أستطع النهوض لكي أشاهد ما حدث.

لكنني رأيتُ نيران الانفجار، فما الذي حدث؟

هل أكلّم نفسي دون أن أدري؟ من هذا الذي يتكلّم إذن؟ في المرات السابقة على طول الطريق من بيتنا حتى هنا، كنتُ أرى من يكلمني، ولكنني الآن لا أرى أحداً! هل هذه حيلة جديدة؟ وإذا كانت حيلة جديدة، فما الحيلة القديمة؟

- يا أستاذ، لماذا لا تعبّرني؟ ألم أسألك؟

تَلَفْتُ بجانبني كأنني أنظر إلى أحد أتحدث معه. لكنني لم أرَ أحدًا. ولم يكن ضوء  
عامود الإنارة يكشف عن شيء واضح. فأضأتُ كشاف الهاتف بيدي، وعلى ضوءه وجدتُ  
فقط يدًا تتحرك ورأسًا تكاد تكون مثبتة في الأسفلت على جانب الطريق.

- لا بدَّ أنك ارتجفت. ما الذي رماك إلى هنا؟ لا تخف. كل الناس يسرعون خطاهم  
عندما يمرُّون من هنا ليلاً. قبل أن تصل إلى هنا بقليل، وجدتُ رجلًا يجري، ولكنه لم  
يكن صامتًا مثل الذي كانوا يجرون طوال تلك السنوات. كان يقول: "يا بتاع نجيب  
محفوظ". وأنت الوحيد الذي توقفتَ وجلسْتَ كأنك غريب مثلي.

- لستُ غريبًا يا عم.

قلْتُها كأنني أنفي عن نفسي تهمة، ولكنني استدركتُ موقفي:

- ولستُ قريبًا أيضًا.

قلْتُها له، وأخذ صوتي يتحسّج وكان ماءً يقف في منتصف حَلْقِي ينغص عليَّ مجرى  
كلامي.

حاولتُ اليدُ أن تربّت على جسми. لكنها لم تستطع أن ترتفع لتلمس كتفي.

- وأنا يا ولدي لستُ هنا ولستُ هناك. ذلك الذي قتلني حُكم عليه بخمسة وعشرين  
سنة. ربما مات في السجن وربما سيخرج بعد أيام. وما أن تقاطر دمي ساعة غدره  
على هذه الطريق قبل أن تصير مُسفلةً، صار الناس يدهسونني بالأقدام نهارًا لتتفتّت  
روحي وسط التراب، ويسارعون الخطي ليلا كي يهربوا مني. وهذا الأسفلت اللعين  
قصر ظهري (يقولها ضاحكا كأن له ظهرا فعلا)، فلم يوحّدني بالتربة ولم يصيرني  
أسفلتًا. لم أستطع أن أتحرر كذرات التراب وأتطاير، أو أكون ملتصقًا جامدًا  
كالإسفلت. ذهب جسدي إلى قبر بدون دمي، وروحي أخذتها رصاصةً، لكنّها ظَلَّتْ  
معلّقةً تحوم فوق الطريق ولا تستطيع أن ترجع للدم أو تذهب مع الجسد المُصَفَّى، فلا  
أنا غريب ولا أنا قريب. وما عدتُ أسمع صوت السمك في ماء هذه التُّرعة، ولا  
عدتُ أنس بحوارات يتعذر سماعها على السائرين نياما في هذه القرية الظالم أهلها.

الناس يدهسونني بالنهار كأنتي صرصار ويفرون مني في الليل كأنتي الطاعون. ولكنني منبسط الآن، فلقد سمعتُ منذ ساعة تقريباً سمكةً تقول لي: "خَلِّ بالك يا عم، رجل عينه حمراء سيفجّر هاتفاً". قلتُ لنفسِي: "الهواتف في البيوت، والبيوت بعيدة عن هنا"، مع أنني دعوتُ الله أن يكون هناك بيت بجواري هنا كي ينفجر الهاتف ويحرّرني من الالتصاق بالأسفلت هكذا. وزاد انبساطي عندما وجدتك تجلس هنا دون خوف. هل أجد معك سيجارة؟

- ثانية أبحث لك يا والدي.

تحشرج صوته وهو يقول:

- كان ابني مثلك. ربما في مثل سنك الآن. عندما كان يقترب من هنا تحمر عيناه، يحمر وجهه ويجري صارخاً، ولا أعرف إن كان رعباً أم غضباً. لكنني منذ سنوات لم أعد أراه ولم يعد أحد من أهلي يمر من هنا. يبدو أنهم هاجروا أو كأنهم يخشون أن يتذكروا، فابتعدوا عن مكان التذكر، مكان العجز، الغضب، الاحمرار.

- تفضّل.

أشعلتها له ووضعتها في فمه الذي يكاد يلتصق بالأسفلت على حافة الطريق. سحب نفساً عميقاً. صمت طويلاً. وعندما انتهى من تدخينها قال لي متأثراً:

- شكرا يا ولدي.

- لا شكر على واجب يا والدي.

- شكراً على وقوفك بي، على جلوسك، على كلامك، على سيجارتك. فكلامك لامس قلبي، بدّد غرْبتي. سأتركك الآن وأذهب باحثاً عن جسدي. سنوات وأنا هنا لا أستطيع الانطلاق. يبدو أنني كنتُ في حاجة إلى إنسان يتكلم معي حتى أستطيع الخروج من الخندق بين التراب والأسفلت. سألمم بقايا دمائي أو أنتزعها من تحت الأسفلت بأن أمصها عبر عظام يدي. بعدها سأذهب باحثاً عن جسدي علّ روعي تودعه وتصعد إلى بارئها بسلام.

اغرورقت عيناى. قاومتُ احتباس الكلام. قلتُ له موصيًا:

- أمانة يا والدى تعتذر لمن سعدوا منذ شهور، ومن سعدوا منذ سنة، ومن سعدوا منذ سنتين، ومن سعدوا منذ ثلاث سنوات، ومن سعدوا منذ أربع سنوات، وربما من سعدوا منذ أيام أو أسابيع، فلا أعرف ماذا يحدث الآن مع أنى متأكد من أن الدم أصبح مباحًا ومستباحًا إلى حد السفه والفجور والكفر المزخرف بإيمانيات رجال السياسة المتموّهين. قل لهم: عجزت الأيدي، والأرواحُ مُعذّبةٌ الآن، هنا أو هناك أو هناك أو هناك، كأن الغضب سُكبت عليه مياه صَرْفٍ صَحِّيٍّ أو مياه مَجَارٍ وكأن الاتّقاد كان فحمًا مغشوشًا لا يطهو إلا لحم الأغنام ولا يطهر جسدًا ولا ينظّف بصيرة ولا يوقد رؤية. قل لهم يا والدى: لا تقنطوا، فالعبيط عبيط، والزعبوط آخرته ناس يأكلون بعضهم البعض. أعذرني يا والدى. هو كلام بن عمّ حديث، لكنني أخشى أن تنقد النار فتأكل الأخضر واليابس، الأحياء والأموات.

قال لي بعتاب:

- ولماذا سيرة النار يا ولدى؟ أليست الألفاظ سَعْدًا؟

قلتُ له بأسف:

- معذرة على اللفظ يا والدى. في سلام الله.

قال لي بفرحة:

- في سلام الله يا ولدى.

\*\*\*

بدأ المشهد كأنني أقف بجانب نافورة في ميدان يتسع قليلا، وهي تقف على الجانب الآخر من النافورة بالميدان. كان بيننا فاصل طويل. كنتُ أرى أنه حُرقة الشمس، خيوط تتقلب كبخار الأجساد، هواء محترق يسير كالسرّاب.

انقلبَ المشهدُ فجأةً، أو تدريجيًّا أو كان هكذا في الأصل، إلى وقوفنا أمام كثرة عسكرية أو أمام مبنى مهم جدًا بالدولة، بينما أنا ما زلتُ واقفا بجانب نافورتي وما زالت هي أقرب لباب المؤسسة تحت بهو حرارتها. لم أتبيّن الوجوه جيدا، لكنني رأيتُ بعض الأشخاص يجرون بيننا وسط الهواء المحروق كمن يتعذبون أو كأن النار تشويهم أو كأنهم يمرّون بسلام بعد ألم من جهة إلى أخرى فوق حاجز أو اختبار أو أعراف أو صراط أو شيء من هذا القبيل.

كنا نمسك بما يُشبه الحبل، وكنا نلفه فيما بيننا كأننا نلاعب شخصا يريد أن ينط الحبل. كنا كطفلين صغيرين نلهو بمن يسقط من على الحبل ونحن نهتف مكرّرين:  
- ولّ يا ولّ.

وسرعان ما عرّض الحبل وصارت به فتحة كبيرة كطاقة يقفز منها متدربو الصّاعقة عبر النار أو إليها. وكنا ننتقي من يمر من هذه الطاقة كأننا نلقي به إلى الحميم. كانت الأجساد التي تمر من الحبل تنفجر كأنها كانت تُخبئ أحزمة ناسفة أو سرقت بعض الرصاصات من المعسكر أو استولت على بعض الأسلحة من المُصفحة المسروقة التي ألقينا بها في النيل كي لا تدهس الأصوات المطالبة بالماء والهواء والنبت الحسن. كنا نصفرّ مرّدين:

- على نفسه جنى، على نفسه سقط، بنفسه هوى، بنفسه هلك. يا بتاع المكتب، عارف أجلكَ فين؟ يا بتاع المكتب، عارف أجلك على يد مين؟

عندما استهوتنا اللعبة إلى حد الانهماك، تحوّل المشهد فجأة، وكأن هناك من قطع الحبل أو حوّل مسار السائرين نيامًا إلى حتفهم على أيادينا، وصفّ مكانهم من نريد لهم الحياة. وزاد من استغرابي ومن استغرابها وقوفنا على طرفي النقيض، أو ليس على طرفي النقيض، بل وقوفنا على طرفين بعيدين دون نقائص أو نقائص أو عبور.

غمزنا بأعيننا عندما أبصرنا حركة مفاجئة للباب الذي يقع في مؤخرة الميدان خلفها، فنجونا بأنفسنا وسقطت الوجوه المتسارعة نحونا في حفرة الجحيم.

انتقل المشهد كأنني أفتح باب مصعد ما. أجدها بداخلة كأننا سنصعد إلى دورٍ واحد أو شقة واحدة أو السطوح نفسها لنشم قدرا من الهواء الحرّ ونعود كأشباح إلى جحورنا، أو كمحاربين إلى صفوفنا أو كميدانيين إلى ميداننا أو كزارعين إلى أرضنا. رأيتنا خارجين للتو من جحيم ما، من محرقة تطهر القلوب وتحرق بريق الذهب الغافل. لا أدري إن كنتُ رأيتَه غافلا أم لا، لكنه كان هناك يحترق. لم يستطع النهوض من الحفرة. رأيتها هاويةً، ورأيتنا واقفينِ نرقص على وقع هواء جديد، هواء كان يعزف موسيقى بحرٍ هادر لم تصاحبه أنف من قبل. والغريب أن آهةً كانت تمتازج بالهواء وتزيد من سرعة رقصنا كأنها تحنُّنا على أن نقتنص خطوة إضافية قبل أن ينقطع جسر الخطوات أو يثور البحر علينا.

اختفى البحر وظلَّت الآهة قرينة أنفاسنا. حمدتُ الله على أن يدي لمستُ بابا عندما تحققتُ من الحركة الحربية للأمواج الهادرة نحونا. ابتسمتُ عندما رأيتني وابتسمتُ عندما دخلتُ المصعد فوجدتها، دون سابق إنذار وبعيدا عن ثلاثين عاما مضت، مع أننا كنا سوياً في اللقطات السابقة. قبلتها بشدة وكدت أكل شفتيها التينيتين اللتين تكادان تكون بهما تشققات لا تجعل شفتيها ملساوتين بقدر ما تجعلهما مثيرتين للهضم، ساقيتين للنداء، وفي الوقت ذاته خجولتين في التلبية. احتضنتُها بشدة.

عندما فوجئت بالأشباح في مرآة المصعد، أخرجت نفسي من صدرها ولم أستطع أن أحبس دموعا تتساقط مني لتثقل على المصعد الذي كاد يتهاوى. ضربتها على خدها متسائلا. عضضتُ شفتيها وكأنني أريد أن أقتلع طبقات السنين من عليهما وألغي ذلك الفاصل الزمني الطويل. وأخذتُ أضربها بشدة كأنني أعذب نفسي على مقصلة الوقت وفي سجون الأيام.

أحسستُ بالدم يتساقط مني. أحسستُ بأنني أصعد وأتهاوى، أتهاوى وأصعد، أحسستُ بأنني جبل وأنني ذرة رمال لا تقوى على الريح، أحسستُ بأنني نهر وأنني أرض بور، أحسستُ بأنني لا أعرف كيف أصِف نفسي أو أصف حالتي، وكان صدرها مناديا، كانت كأنها تحسُّ بكل آلامي، وكان جسمها ينتفض وكأنها كانت تتمنى كل ذلك قبل الفاصل الزمني أو بعد الفاصل الزمني أو أن ننصهر في بوتقة نار الميدان كشعلة تعلقو تمثالا جديدا بألوان العَلَم. أحسستُ بأنني بدأتُ أظهر في الدموع؛ فهي التي شدَّتني إلى أن بدأ مطر عيني يهطل

على شِبَاكِ ثُرَاوِدِ الضَّبَابِ، ووجدتني أرتمي في صدرها ووجدتها تضمّني بشدة. ولم نعبأ بدموع أسالتها قنابل ما أو بمن فتح المصعد ووجدنا هكذا.

ووجدت المشهد ينتقل بنا. ورأيتنا جثتين ملقأتين على أرضية شقة ما، يقف جدارٌ كاملٌ فوقِي في شرفة شقة لا يوجد بها أي شيء ولم تنقسم إلى غرف، ويقف جدار آخر موازٍ له فوق جثتها على شرفة بالجانب الآخر من الشقة، وعيوننا جاحظة نحو بعضها، وفي الصالة بعض الدموع، وبعض نقاط الدم، وضحكات هستيرية تتشقى، وعيون تتلصص، وسماعات كأنها تلتقط آهة خافتة يقلبها هواءُ الشقة على مهلٍ، تلتقطها لتكبرها في المدى وتعلن على كل الأذان قنبلة تنفجر. تذكّرتُ الرجل الميت منذ 25 سنة تقريبا الذي قابلته على التربة، وشعرتُ بالأمل في أننا أنا وهي سنخرج من تحت الجدارين. وتذكّرتُ الذي أمام بيتنا أنا وإخوتي، ولستُ أنا وهي، ذلك السور الذي قال إخوتي إنه يريد أن ينقضّ ويريدون أن يقتسموا الكنز الذي تحته، فازداد شعوري بالأمل، ليس بسبب كلام إخوتي، ولكن لأنني ربطتُ بين السور والجدار الذي يريد أن ينقض في القرآن والذي بناه سيدنا الخضر من جديد، لأن أبوا صاحبيه كانا صالحين. ولا أعرف إن كنتُ صالحًا أم لا، لكنني أحسستُ بأن ألمَ ضغطِ الجدارين عليّ وعليها يقول بأننا نلفظ بعض أنفاسنا، وأنّ تصوراتنا وأفكارنا في هذه اللحظة لا بد أن تكون صادقة.

\*\*\*

لم تستطع الأصوات المتحشجة أن تمنع إحساسي بالوحدة بعد أن تركني ذلك الصديق المتحشج الذي لم أكن أعرفه ولكنني التقيته على التربة. كان إحساسي بأنني ساعدته على الخروج من الخندق المفروض عليه ما بين التربة والأسفلت إحساسا جميلا، ولكنه فتح نفسي على الصحبة. وفي الوقت ذاته، وجدتُ في الأصوات المتحشجة الهادرة تشويشا للرؤية وخشيتُ أن نعود إلى التهليل والاحتفال اللذين يجعلاننا لا نلتفتُ إلى الذين يستعدون للركوب هذه المرة، كأن التاريخ لا يعلم أحدا، كأن الكأس يمكنه أن يسئلكَ من رؤيتك لتشرب منه مرتين وثلاثًا. وظهرت لي رسالة على شاشة ذاكرتي تقول لي:

- انصت للهاتف.

استغربتُ الرسالة، فالهاتف في يدي، ومنذ أن عثرتُ عليه في جيبِي وأنا أسجِّلُ عليه المقاطع الصوتية التي أصف فيها الذي صادفني على طريق الخروج حتى الآن، وأصف أيضا إحساسي به أو هواجسي حياله، وأسجِّلُ عليه أيضا ما أستطيعُ أن أتذكَّرَه. وتذكرتُ أنني أمارس هذه العادة منذ سنوات طويلة وأسجلُ تاريخي ورؤاي وهواجسي على هاتفي في مقاطع صوتية تطول أو تقصر، مقاطع كأنها أنا على درب لا ينتهي حتى بموتي، لا ينتهي بالضربات التي تلقَّيْتُها على رأسي غدرًا أو حسنَ نيةٍ أو هشاشةٍ تأخٍ أو أخوةٍ باطشةً، كأن التاريخ الشخصي أو العائلي أو تاريخ الأرض والوطن فاقدُ للذاكرة هو الآخر، وعليك أن تدفع رؤيتك، مآلك، دمك، راحتك، سلامك في مقابل أناس قلوبا أو كثروا يحتكرون كل شيء، يستولون عليك قبل أن يستولوا على ما هو لك.

هاتفي تاريخي، تاريخي أكبر من هاتفي. أين الساعات؟ وجدتُها منذ ساعتين مثلا في جيب ملابسي التي فوجئتُ بأنها ملابس شتوية. ليست كل عناوين الملفات أو المقاطع تبدأ بـ voice، حيث يوحي هذا الاسم بالصوت البشري والحميمة والبصمة والإصرار على الوجود، فهناك ملفات تبدأ بـ sound وهناك ملفات تبدأ بـ record وهناك ملفات يتم في اسمها اختصار إحدى هاتين الكلمتين ربما كي لا تختلط مع ملفات تحمل نفس الاسم.

هناك أشخاص سربوا ملفات إلى ملفاتي وهاتفي، تداخلوا مع تاريخي. أنا لا أذكر شيئا. كل ما أذكره أنني لم يعد معي هاتف سوى ما أسجل عليه المقاطع التي تبدأ بـ voice، والهاتف الآخر الذي به كشف إضاءة ربما أحضرته لي زوجتي في تلك الكتلة الزمنية التي لا أدري حجمها، وربما أحضره لي أخ من أخوي اللذين لا يعيشان في هذه البلدة المُستَحَوِّدُ أهلها، وربما أحضرتها أخت من أخواتي. لا أستطيع في حالتي هذه إلا أن أعيش على الاحتمالات ما دمت لا أجد الآن من يؤكد لي احتمالا. الهاتف هو كل الأشخاص الآن، هو عائلتي المؤقتة، عائلتي المختارة إجباريًا، فلأستمع له حتى أرى ما الذي قمتُ بتسجيله عليه وما الملفات الغريبة التي نُقِلَتْ إليه...

\*\*\*

يا راوي، أعرف أنك لا تتعرّف عليّ. لا تذكرني ولا تذكر أحدا. أنا راوية زوجتك، بجانبك الآن وبجانبنا أولادنا. آسفة؛ نسيْتُ أننا نسجّل روايةً. هي رواية يا أبنائي، فلا تقلقوا. معك يا راوي. كثرةُ الغم تولّد الضحك. هل سنترك الغم يميّتنا؟! ما يحدث أكبر من أي رواية.

أذكر تلك المرة الوحيدة التي تعرّفتَ فيها عليّ من بين ضباب ذاكرتك وقلتَ لي بالحرف الواحد:

- لو استغرب أطفالنا شيئا، قولي لهم إنني أمثل رواية أو أسجلّها أو أكتبها.

وها أنا معك، وبجانبنا أولادنا حياة ونيلاء ويحيى. غيّرتُ اسمي واسمك بسهولة، ولا أعرف لماذا صعبَ عليّ تغيير أسماء أطفالنا! هل لأنني لا يمكنني أن أتخيلهم إلا على أنهم أطفالنا؟ لا أعرف. ولا يهم الآن. المهم أنني حاولتُ كثيرا أن آخذك من هنا، أن نعود إلى شقتنا بالجيزة، لكنك ترفض ولا تفصح عن سبب. لا نتذكرنا ولا نتذكر شقتك. فقط تتشبث بهذه الغرفة بالدور الأرضي من البيت الجديد التي كنا نقيم بها عندما ننزل في إجازة بعد أن تركتَ شقتك بالدور العلوي لأخيك ليتزوج فيها وتركتَ هذه الغرفة لأُمك بعد أن رفض إخوتك أن تقيم أُمك بالبيت القديم وطردها من غرفتها هناك.

تتشبث بهذه الغرفة. تتشبث بشجرة التين التي مات تحتها أبوك. تتشبث بالدَّكَّة التي بداخل السور وكان أبوك يتنقل بينها وبين شجرة التين قبل وفاته، وهي نفس الدَّكَّة التي كانت أُمك ترقد عليها كمداً وهمّاً ونزيفاً. تنظر أنت لإخوتك بعين بلهاء غائرة، وأراك تنظر لي بعين مفعمة تريد أن تقول أشياء، لكنها تكتفي بدمعة تحتبس فيها دون أن تتذكر شيئا، دون أن تفتح المجال للكلمات لكي تعبر بذاكرتها وذاكرتك إلى بر الأمان.

أعرف أنك تسجّل قصصك وأشعارك وخواتمك ومقاطع رواياتك وكل إبداعاتك على برنامج التسجيل بالموبايل، وأعرف أنك تستمع إلى ما تسجله عندما تنفرد بنفسك أو تجلس لتسجله على جهاز الكمبيوتر؛ ولذلك سجلتُ هذه المقاطع لك، فربما عندما تسمع صوتي مرة وراء أخرى تربط ذاكرتك بين نبرتي وتلك الكائنة التي تختفي في طياتها.

أعطيتُ نقوداً لابن عمك كي يشتري لك أكلاً ويضعه في الثلاجة وكي يشتري مسحوقاً وصابوناً لكي تغسل ملابسك، وشايًا وسُكَّرًا ومُعَسَّلًا، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، إلى أن نلتقي سوياً فتعبر الكلمات من عينيك إلى عينيَّ ومن عينيَّ إلى عينيك دون أن تحتجزها ذاكرةٌ أو تطمسها في طياتها فتضيع.

\*\*\*

صور تتداخل في رأسي. كلمات كأن حروفها تتعارك مع بعضها البعض. شخص يقف في البراح أمام البيت ويشير بيده في كل الاتجاهات ويقول:  
- كُلُّ هذا لي.

شخص يقول له:

- ليس معنى أنك تسمع لكلام زوجتك أن تطمس ضميرك، أن تبيع بيتاً، أو تستحوذ على أرض، أن تقطع رحماً، أن تخرب بيتاً من المفترض أنه متماسك. قل لزوجتك إننا إخوة وسنحتكم للشرع والعدل

- زوجتي وهي حرة. إن خلعت ملابسها وجلست عريانة في هذه الساحة المكشوفة على الطريق ليس لأحد منكم أن يقول لها كلمة واحدة.

- يا أخي هناك أصول. الحياة ليست بلطجة.

- البلطجة أن تأتي الآن وتطالب بحقك. أي حق يا أبا حق؟ الأرض لمن يعيش عليها.

- وهل أنا لو وَجَدْتُ من يعيشون عليها يرحّبون بي في أرضي كنتُ سأطالب بشيء؟ أشعر بأنني غريب على أرضي، لا حقَّ لي ولا أرضَ ولا وجه.

- دعك من كلام المسلسلات هذا. أخذتَ نصيبك من الدنيا وزيادة. وتجيء الآن لتأخذ نصيبي.

- ومن قال إنه نصيبك. شرع الله بيننا.

- وشرع الله لا يرضى بأن يعيش أولادك عيشة أحسن من أولادي.

- استغفرُ ربك.

- لم أفعل شيئاً لأستغفره.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

تظل الأصوات تدور دون أن تتضح صورة أو يظهر في أفق الذاكرة مشهد ختامي.

\*\*\*

إلا أمي يا أولاد... أمي. انطلقت العبارة من جذوري محمّلة بكل ثورات الغضب وأخذت تدور حولي كبركان لا يعرف الهدوء أو الخمود. أخذت أبعد عن أمي وكان جامداً كأنه لا يحس بأنه فعل شيئاً. كانت الكلمات تتناثر مني بلا توقف:

- مرّة تشتمها زوجتك، ومرّة تضربها أنت وتقف زوجتك تقول لك: "علّمها الأدب، هذه الست المجنونة!" يا أخي ملعون هذا الأزهر الذي تعلّمت فيه إذا كان لم يعلمك الأدب ولم تفهم شرع الله حقاً! هل تحتملك؟ أم تحتمل زوجتك؟ أم تحتمل ذلك الأخ الذي يمثل دور البريء ويمتص دمها؟ أم تحتمل ذلك الأخ الثالث الذي يطالبها بما لا تستطيع أو يدفعها للاتصال بنا وبالبنات ليؤمنن مستقبل أولاده وهو لا يفعل شيئاً؟ وحتى الأرض التي اشتريناها ورئسناه عليها بورّها وأتلف محاصيلها. كل ما يهتمكم الفياجرا والأكل ولا تفكرون في عمل شيء. حتى أرضنا استأجرت لها أحداً يزرعها، ولو طلبت منها حتى عود جرجير تبيعونه لي بضعف ما تبيعونه للغريب.

- أنت لا تعرف شيئاً. الكتب لحست مُخك. هل أعمل في وظيفتي أم أعمل في الأرض؟

- قل له. كلما جاء من المدينة قال لنا الأرض. أي أرض وما نأخذه منها في السنة لا يساوي مرتباً واحدة مما يقبضه هو؟

- أهل المدينة هؤلاء يعيشون في ملكوت. كل مرة يقول لنا: الاستثمار، العمل، الأب، الأم، الأرض، تربية الأرض، رعاية الخضرة، مستقبل الأولاد.

- المجانين في نعيم.

أراني أقف صامتا ذاهلا: كيف لي أن أساعدهم وهم لا يريدون أن يساعدوا أنفسهم؟  
كيف أصل رحي و هم يقتلون أمي ليل نهار؟ وبعد كل ذلك تخرج أمي عن صمتها ودموعها  
وألما لتقول لي:

- دعه يا ولدي. أهم شيء أن تكونوا مع بعضكم البعض، يد واحدة، ولا تشمّتوا فينا  
الغريب.

- أي غريب وأي قريب وشبكة العلاقات كلها واقعة!! إن لم تنصلح البنية التحتية يا  
أمي لن ينصلح شيء.

- قل لي كلاما أفهمه يا ولدي. دعك من تحت وفوق. لم يضربني. دفعني بيده فقط.  
هو لم يقصد.

أحسستُ بأن أمي تلوي ذراعي. تفهمتُ تضحيتها، لكنني رأيت أن التضحية أحيانا  
تكون سَمًا قاتلاً، تُفسدُ كل شيء. وتذكرتُ تضحياتي، قوت أولادي الذي لم أبخل به على  
أحد. تقترض المال لتعطيه لهم كي يقفوا على أرجلهم ويظنون أن ما تعطيه لهم ذكاة مالِك  
ومعك عشرات أضعاف ما أعطيتّه لهم. والغريب أن معظمهم موظفون مثلك وإن كانوا في  
وظائف أقل نوعا ما.

\*\*\*

أحضرتُ لك، يا راوي، ملايسك الشتوية من شقتنا. آسفة يا حبيبي. زيارتي قصيرة  
جدا، فها هي الدراسة قد بدأت ولا نستطيع إلا أن نمكث معك يوما واحداً ويوماً نفتسمه على  
المواصلات قدوماً ورجوعاً. أحضرتُ لك هاتفاً محمولاً آخر به كشّاف لأن الكهرباء عندك  
هنا وعندنا هناك تنقطع على الدوام. أحضرتُ لك أيضا كارت ذاكرة أكبر لذاكرة هاتفك  
الأصلي، ونقلتُ لك عليه كل ما كان على الكارت القديم، وسأحتفظ بالقديم معي حتى تستطيع  
أن تسجل ما يحلو لك وحتى أحافظ على ما هو مسجل على الكارت القديم فربما تحتاجه إذا  
ضاع هاتفك أو أتلّف أحدُ بيانات من عليه، فلقد قلتُ لي من قبل إنك تسمع أحيانا تشويشاً في

هاتفك عندما تجيئك عليه بعض المكالمات. أحضرتُ لك أيضا بعض كتبك لأن المكتبة التي هنا في هذه الغرفة، مكتبك القديمة، كتبها المتبقية قليلة، لأنك كما قلت لي من قبل كانوا يحرقون الكتب للتدفئة أو في الفرن أو لأي شيء.

العيال فرحون جدًا بالطيور، فرحون بالغراب والهدد والزرزير. يلتقطون لها صورًا وهي بجانبك على الدكة أو تحت شجرة التين أو في هذه الغرفة. ويصورون أنفسهم سيلفي معها. تقف الطيور على أكتافهم أو على أيديهم أو بجانبهم عندما يكونون جالسين بجانبها، وجودها معك يطمئنني، وأحس فيها بألفة شديدة، كأنها من عيالنا أيضا.

أحضرتُ لك طعاما جهّزته ووضعته في الثلاجة، وأحضرتُ طعاما للغراب والهدد والزرزير أيضا، لستُ في حاجة لأن أوصيك بها، فأعرف أنها صديقاتك، وأنت تتعامل معها كما لو كانت تسمع كلامك وتفهمه. في حفظ الله يا حبيبي. هيا يا عيال بوسوا أباكم، فالسيارة التي اتصلنا بها لتتقلنا إلى المَوْقِفِ قادمة هناك في أول الطريق. نلتقي على خير يا حبيبي.

\*\*\*

غُلبْتُ معك يا راوي! لا أعرف كيف تتجبرّ ذاكرتك إلى هذا الحد لتنسيك معظم الأشياء والوجوه إن لم تكن كلها! أتحسّسُ رأسك. لا بد أنك تذكر لمساتي على جُرحك، تذكر شفاهي وهي تحاول أن تضمد جراح رأسك. كانت الذكرى السنوية لذلك الرئيس المشؤم وكنتُ وسط الشباب في الميادين تهتفون بعودة الروح التي كادت تفارق الأرض، فلم تجد إلا خرطوشا على رأسك ورصاصة حية لامستُ فروة رأسك وكانت قدمك شبه عرجاء كأن الذي يصوب عليك يصوب على الرأس وعلى القدم كي لا تتحرك فكرة في الرأس ولا تدب خطوة على أرض الوطن لتصنع شيئا له.

صارت المستشفيات لا تعترف بأي ضحية أو مُصاب، ولا يصاب إلا كل مُعارض لشفطِ روح الأرض، كانت تعتبره عدوا وخائنا وعميلا ولا يحق له العلاج، وكانت مقاومتك رائعة كأن جرحك يتعاون مع عزيمتك في أن يتمثل للشفاء على عجلٍ.

عندما طلبت أن تنزل في زيارة للبلد في عيد الأم استغربتُ تماماً. لم يحدث أن قطعنا خمسمائة كيلومتر لنرى أمهاتنا في عيد الأم. كنا نكتفي بالاتصال ولا ننزل للزيارة إلا إذا كان عيد الأم مقترنا بالعيد الصغير أو العيد الكبير، وحدث مرة أو مرتين منذ زواجنا أن تصادف عيد الأم مع عيد الأضحى قبله بأيام أو بعده بأيام. قلتُ:

- فلتنزل. ربما يعجلُ ذلك من شفائك، ربما يخففُ من اشتعال رأسك غضباً على ما يحدث من انحدار. ربما يساعدك قربك من أمك على أن تتوصلَ لرؤيةٍ قد تصنع شيئاً يبني الوطن ويزلزل الأعمدة المتآكلة والقراصنة المخادعين.

لم أظن أن زيارتك لأمك ستؤدي إلى انتكاسة كبيرة. عرفتُ منك بعد وصولك مباشرة أنك لم تزرها بمناسبة عيد الأم، ولكن هذا العيد كان مجرد حيلة أو عذر لزيارتها لا أكثر. علمتُ منك أن أحد إخوتك ضربها ورفع الفأس في وجهها وكاد يفصل رقبتها. قلتُ لي أسباباً كثيرة، لذلك لا أعرف أيها أصدق، فمن يقول من الشهود إن زوجة أخيك قالت له:

- إما أنا أو أمك في البيت.

ومن يقول إن أمك طالبتَه أن يدفع ما عليه من قيمة فاتورة عداد الكهرباء المشترك في البيت القديم، فافتعل شجاراً وكاد يقتلها. منهم من يقول إن أمك طلبت منه أن يقسم محصول الغيط بينه وبين إخوتك القاطنين في البيت بالتساوي، لكنه هاج وقال إن أولاده أكثر عدداً وإنه الأكبر بين المتواجدين بالبيت وإنه يحق له أن يأخذ النصيب الأكبر.

لا أدري سبباً محدداً لأنك عندما كنت تحدثني عن ذلك لم تكن تدري سبباً محدداً، كما في أي شيء هناك، فلا تستطيع في هذه القرية أن تعرف شيئاً على وجه التحديد، كل واحد ينقل لك كلاماً عكس كلام الآخر، وكل واحد يُقسم أنه يروي الحكاية الحقيقية. وأنت لم تكن موجوداً هناك في البداية، وعندما وصلت - كما قلتُ لي - سمعتَ كلاماً متناقضاً من الجميع ولم تستطع أن تتوصل لصورة مقنعة. وكل ما كان يؤلمك أن تمتدَّ يدُ لأمك، أن يكون ذلك جزءاً بعد كل هذا العمر، أن تنزل دمعة من عين أمك في هذا العمر وطوال حياتها لم تنزل من عينيها سوى دموع الفرح ودموع الفراق.

بعدها بيوم أو يومين كنتُ أكلّمك ووجدتك غاضبا وتقول:

- دمي محروق. أأقطع رحماً لأصل رحماً؟ أدخل السجن في كائن لا يراعي أمه ولا يحترم نفسه ولا يترفع عن أهواء زوجته وخرابها؟

بعدها سمعتُ أصواتاً عالية وتشاجراً، وكانت صرختك مدوياً وانقطعت المكالمة بيننا ولم تعد تذكر شيئاً بعدها.

إذا كنتَ تريد نصيحتي، لا تقطع ولا تصل، المهم الآن أن تجلس مع نفسك، وتواصل الاستئناس بالغراب والهدهد والزرارير، كي تستطيع أن تجمع ذاكرتك المتناثرة هنا وهناك، كي تعود إلينا يا حبيبي.

لم أستطع أن أحضر العيال معي هذه المرة، فها هو التيرم في منتصفه ولديهم اختبارات شهرية. تركتهم مع أختك بالشارع المجاور لنا بالجيزة، وجئتُ إليك سريعا في نهاية الأسبوع كي أطمئن عليك. لا تشغل بالك كثيرا بما حدث، المهم أن نظرتك لي بدأت تصفو وبدأت أفهم بعض ما تريد أن تقوله لي.

أخذ الغرابُ والهدهدُ يرفران حولي عندما جئتُ بالأمس، كأنهما يرحبان بي، أو أنهما يدركان أنني قلقة عليك وأرادا أن يطمئناني عليك وعلى أنهما لا يتخليان عنك وأنهما معك إلى أن تعود إليك وتخرج من هذه الغربة في المكان والزمان، لنلتقي سوياً ونعوّض ما فات.

سأتركك الآن، كي أستطيع أن أصل إلى الجيزة قبل غروب الشمس، فالسفر في الليل ليس آمنا كما تعرف، وقد يقطع أحد الطريق الصحراوي ولا أستطيع أن أصل للعيال. في حفظ الله يا حبيبي.

\*\*\*

وماذا أفعل يا أختي؟ هل رأييتي يوما أترجع أو أدفن رأسي في طين وأرفعها بحديث لا يتعرّف عليّ أحد؟ هل رأييتي أقصرّ يدي على طريق تنتظرني يدٌ ممدودة على جهتها الأخرى؟ لكنني أقف الآن عاجزاً عن فهم أي شيء. لم أقل شيئاً. ولا أختلف معك في ذلك.

تعرفين أنني لا أحب الظهور أو فرض إرادتي أو توجيه نصيحة لأحد ستفهم خطأ، كما تعرفين أنني لم أبخل بكل ما لديّ عليهم وعلى عيالهم.

يحزنني الآن أن أجد نفسي واقفا في الهواء، لا قَدَمَ لي ولا شجرَ. حتى الأشجار التي زرعناها تيمُّناً بشفاء أبينا قديماً اقتلعوها، بالرغم من أنهم هم الوحيدون المستفيدون منها، فلا أنا ولا أنتِ ولا بعض إخوتنا المتناثرين في المدن يأكلون من ثمارها شيئاً. وفيما تعنيني الثمار أصلاً؟ الأشجار بالنسبة لي رمز، رمز لأبي، ورمز لحضورنا نحن الغائبون. قلنا بعد وفاة أبينا:

- فلتكن ثمارها صدقة جارية على روحه ما دمنا زرعناها له في الأساس. يأكل من ثمارها العيال والجيران.

أحسُّ ببصمتي تُزال من هناك. وهل سأقضي بقية عمري يعذبني الحنين؟ حنين لا أجد يداً واحدة تساعد في إشباعه. الواحد بدأ يشكُّ أصلاً في هويته: من أنا الآن؟ أنا ابن تلك القرية التي تأخذ ما أقدمه لها وتبصق في وجهي كحركة شكرٍ أو ردٍّ للجميل؟! أنا لا أعتبره جميلاً أصلاً. أذكر نفسي دائماً بأن هذا فرض عينٍ عليّ، فكما تعرفين، لا تُقصِرِ الشجرة ظلها على مَنْ زرعها وثمارها يمكن أن تُطعم أي إنسان. أبونا لم يفرّق بين أحد. كان يجلس في وقت العصر بجانب ماكينة المياه على الطريق الغربي ويدعو أي مارٌّ لتناول الشاي. وكان يضربنا إذا ضرب أحد منا نحن الأطفال أحداً من البيوت المجاورة. أصرَّ على تعليمنا جميعاً بالرغم من أنه لا يقرأ ولا يكتب، ولم يدخل يوماً مدرسة. ولكن واحداً من إخوتنا هرب من التعليم، كما تعرفين.

فيما كانت ستَضُرُّ الأشجارُ لو بقيت دون اقتلاع؟ هل نكاية فينا لأننا سَكَنَّا المدن أم نكاية في أبي ولا يريدون أن تصل إليه صدقة جارية؟ ومن الذي أخطأ أصلاً في حقهم أو حق غيرهم؟ إلا إذا كان ما لا نبخل عليهم به إهانة في حقهم؟!

لا أدري إن كان عليّ أن أبتمس أم أنفجر من الغيظ! أحسُّ بالدم الآن يتسارع ليتمرّد على مجاريه. أتذكرين عندما ذهبتُ إلى هناك في الصيف الماضي ووجدتهم يحرقون كتب

مكتبتني في الفرن لأن أحدهم تكاسل وتراجع عن الخروج إلى شونة الحطب ورأى أنه من الأسهل عليه أن يغذي الفرن بكتبي. ولم تركتها أصلاً؟ كان بإمكانني طبعاً أن أشحنها إلى شقتي هنا في الجيزة، لكنني قلتُ لنفسي:

- اتركها عندهم؛ فربما احتاجها طفلاً أو شاباً من بينهم.

المرّة الوحيدة التي قرأ أحدهم كتاباً أو جزءاً من كتاب لي، رنّ على هاتفي لأتصل به ويوبّخني لأنني كتبتُ قصة عن شخصية من قرية وتصادف أن اسمها كان متطابقاً مع اسم شخص من العائلة. كأنهم القداسة بعينها، كأنهم على صواب دوماً وذنب لا نعرف أي شيء عن الصواب. والتهمهم جاهزة عندهم: كيف أدّتهم تلك الشخصية من العائلة؟ كيف أفصح أسرارنا؟

والله ما عدتُ أدري إن كانت أسرارهم أم أسرارنا، إن كنتُ أنا منهم أم لا. وما معنى الأسرار أصلاً؟ ومن ذا الذي لا يستمد من حياته زاداً لتجارب يرويها أو قصة يكتبها أو رؤية يطل منها على الحياة أو منظوراً يوسّع له النظر إلى تجارب الآخرين؟

هيا وسّعي مداركك لدراسيتك للماجستير في مجال الرواية. لا طبعاً. لا يمكن أن تتوقفي لأي سبب. طبعاً حياتك وحياة أسرتك الصغيرة أهم، لكن لا تتركي العوامل الأخرى التي تصلك عبر الهاتف أو بالقضاء المستعجل، أقصد البريد السريع ولا تعترف بالمسافات ولا الجغرافيا، تحبطك. يمكنك دائماً أن تحاولي، أن تتجاهلي ما تريه غير طبيعي ويكاد يوقف حياتك كلها. الجذور يا أختي. ألم أقل لك منذ قليل إنني ما عدت أعرف لي هوية؟

خفّفي عن نفسك. أنا شخصياً لا أجد مبرراً لكل ما يحدث لنا في حياتنا الشخصية خارج جبهة. وحتى إن أرجعنا ذلك للجهل، فهو أو غيره ليس جاهلاً ولا صغيراً. تعليمه الجامعي مثلنا تماماً، فلقد تخرّج في نفس الكلية التي تخرجتُ فيها أنا وأنت. يمكن أن يحدث طبعاً. ولا يوجد ما يمنعه من أن يكرر ما فعله من قبل ويطردك من بيت أبيك على أساس أنك متزوجة ولا يحق لك أن تأتي إلى بيت أبيك وطفولتك إلا إذا جئت حاملاً مأكلك ومشربك وكذلك هدايا له ولأطفاله وزوجته. من أنا؟ ومن أنت يا أختي؟ وأنا أيضاً وجّه لي اتهامات

ليس لها أساس. وحتى لو اكتفى بالاتهامات كان من الممكن أمامي أن أتغاضى عنها: زيارة أو زيارتان في السنة لا غير، ومتى نلتقي بعد ذلك؟ ربك هو العالم، ربما نلتقي مرة أو مرتين أو لا نلتقي. لكنه بدأ يكتل كل الناس ضدي.

ولماذا سأذهب أنا أصلاً؟ أمجرد حنين إلى لحظة دفء؟ أم أن ذهابي رغبة منّي في امتداد الدفء إلى حاضري. أسمعك تضحكين: أي دفء وحرارة أغسّطس لا تُبقي لأحد إلا رغبة في البرودة؟ فكّرتُ في الأمر ورأيتُ البرودة احتمالاً وارداً قد يكون حلاً سحرياً: الابتعاد وتجميد الوضع عند نقطة حميمة ماضية كي لا يصدمني إحساسي بانهيار كل شيء. لا يُعقل أن أبدأ الآن بعد سن الأربعين بالبحث عن الطريق، بالبحث عن الانتماء، بالبحث عن السفر، بالبحث عن ملامح أب مات، عن ملامح أم ما عادت تفرّق بين شيء، عن نسمة تعذبني في غربتي وكأنها جاءت فجأة كي توبّخني أو كي تصبّرني أو كي تبلغني برسالة لا أستطيع تحديدها بالضبط.

هل أستطيع أن أحتمل ضياع أربعين عاماً هي كل شيء بالنسبة لي فجأة وبدون سابق إنذار وبدون سبب منطقي أستطيع أن ألمسه بيدي. يا الله! "كلما وصلنا إلى ميناء<sup>1</sup>..." و"كلما نصل إلى ميناء..." أيضاً. يجوز يا أختي يجوز. كلما ارتّب أوراقى وأعيد تشكيل مفردات حياتي بحيث تصير منسجمة إلى حد ما حتى أستطيع أن أواصل حياتي وأرعى زوجتي وأطفالي وأكمل ما بدأتُ في كتابته، تنقلب أيامى عليّ وأجدني راجعاً لنقطة الصفر لا أعرف مَنْ أنا ولا أستطيع أن أحدد ملامح شبكة علاقاتي وجذوري.

حتى الكمبيوتر أحسّه أحياناً يتلاعب بي. أتذكرين يوم عيد الأضحى السنة قبل الماضية؟ اشتعل الكمبيوتر والطابعة في غرفة المكتب التي كنا لا نجلس فيها، ولم يكن هناك أي سبب منطقي لأي شيء: حديد يشتعل دون إشعال نار في يوم من المفترض أنه يوم عيد وفرح. طبعاً مذكور في القرآن في قصة سيدنا سليمان وقصة سيدنا موسى ومواقع كثيرة.

<sup>1</sup> للمطربة حنان ماضي أغنية بعنوان "يا غريب" تقول فيها: "كل ما نوصل لمينا، نبتي ونقول رسينا، الشطوط ترفض لقانا، والبحور تاتي تنادينا".

لكن السؤال يفرض نفسه: لماذا أنا وأنتِ وكل إخوتنا الذين لا يعيشون في القرية؟ أكلما خطونا خطوة جاء أحدٌ لا نراه وألغاهما بما لا نطيق؟

في النهاية نحن بشر، وكل منا له طاقة على التحمُّل. ولماذا تتضاعف المشاكل عندما ننزل البلدة لنقضي أجازتنا السنوية؟ سؤال لا أستطيع أن أجيب عليه، بالرغم من أنه سؤال يطرحه كلُّ صديقٍ من أصدقائي على نفسه عندما ينزل بلدته لقضاء إجازة أو أي مناسبة أخرى. أتذكرين عندما تلفتُ أجهزتنا في وقت واحد في سبع شقق في مدنٍ مختلفة. ليستُ مصادفةً بالتأكيد أن تتعطل جميع الأجهزة في جميع الشقق في نفس التوقيت. وما الذي فعلناه ضد أي أحد؟ الواحد أحياناً يغبط سكان المدن الذين ولدوا فيها أبا عن جد. يا الله! اللهم ثبّت عقولنا وألهمنا الرشد والسكينة والرضا.

من داخلي لا أريد. لا أحس أساساً بالرغبة في الذهاب، وتطاردني أغنية لا أستطيع الإفلات منها كأنها لعنة أبدية منذ أن سمعتها وهي لا تفارق أذني: "ماذا نفعل ولقاءنا وداع نؤجله"<sup>2</sup>. هل أذهب ويكون ذلك آخر يوم وبعده عليّ أن أعيد تشكيل هويتي وأعيد رسم خريطة انتماءاتي وأبحث لي عن أب أو أبحث في دفاتر عائلة منسية عن جذور أخرى، عن إحساس بالامتداد لا أحس به الآن ولا أجد له أي معنى؟! يا الله... يا الله! كل الناس الطبيعيين تتجاوز مشاعرهم المتناقضة بجانب بعضها البعض وهم بشر في النهاية، بل هم هكذا. لكن لا يوجد مبرر أصلاً للعداء المستمر. ليس زميلاً لي بالعمل يعاديني لأسباب يتوهمها بأنني أنافسه وأنني عندما أخطو خطوة للأمام في حياتي الخاصة أو حياتي العامة يعتقد أنها خطوة على حسابه هو. لسنا زميلين، هو أخ. أخ لي، كما هو أخ لك.

هل توصّلتِ إلى نتيجة مُرضية أو رغبة حقيقية بعد صراعي مع نفسك الأسبوع الماضي؟ ... وأنا كذلك. لم أستطع أن أتوصل لرغبة حقيقية لديّ في الذهاب. لكنه عيد، وأنا سأقطع مئات الكيلومترات لكي أذهب إلى بلدتنا أو لكي أستعيد بعض الأحاسيس المفقودة أو أستجمع صوراً باهتة من ذكريات تعذبني الآن وتشكّكني في كوني موجوداً أصلاً في تلك الذكريات. أريد فقط أن أذهب لأتحسّس أنفاسي في المكان وصلاتي على الجدران، علاقتي

<sup>2</sup> للمطرب المصري جوني أغنية بعنوان "مطر عطشان" يقول فيها: "طب نعمل ايه ولقانا وداع بنأجل فيه"،

بالأشجار، همسي لمجرى الماء، ... بعض كلمات ربما تكون وثيقة رسمية لي تصير هوية وعنوانا وعلامة على أنني كنتُ هناك، على أن جسمي هذا بكل ما فيه من إحساس وفكر ورؤية ليس نبأً شيطانيًا في حاضرٍ مهجورٍ، بل له جذور، له امتداد، كان يعيش منذ عشرين سنة ومنذ ثلاثين ومنذ أربعين سنة في أرض هناك، كانت رؤاه تتشكّل فيها وبها، كان يترك بصمةً في المكان ويترك المكان بصمةً في روحه، كان جزءًا من كلٍّ، وكان فردًا تمتد عيناه في الأفق إلى حيث يعدو القطار لاهيًا دون أن ينتظر، دون أن يمرَّ على قرية نائية.

\*\*\*

أعرفُ يا راوي أنها كانت تجربة قاسية عليك، لكن ما العمل؟ كُليّتك بدأت تصرُّ على فصلك من العمل، فأنت منقطع منذ شهور، ولم يكن أماننا طريقة للحصول على شهادة مَرَضِيَّةٍ إلا بنقلك من هنا غصبًا عنك إلى تلك المستشفى الحكومية بسوهاج كي يصدر لك طبيب المخ والأعصاب تقريراً طبيًا يمكننا أن نرسله إلى كليتك. هم يعرفون أنك مريض وأنت تلقيتَ ضربة شديدة في رأسك، لكنهم يقولون:

- لا شأن لنا به ما دام لا توجد لدينا أوراق رسمية.

أخذتَ تصرخ وترفض القيام من تحت شجرة التين التي أعرفُ أنها ترمز لأبيك وتربط بينه وبينها، وهي أيضا التي... لا يهم. لا تشغل بالك بشيء الآن. لم أكن موجودة. فأنت تعرف مدارس الأولاد، وتعرف أن السَّفَرَ في ذلك الوقت غير آمن من الجيزة إلى هنا في الصعيد. مسافة ست ساعات، والطرق يمكن أن تُقَطَّع في أي وقت. حكى لي أخواك اللذان يعيشان في سوهاج المدينة إنك تشبثت بشجرة التين لدرجة أنها كادت تُقَتَّل، ولولا أنك رأيتَ أنها بدأت تتلخخ قليلا ولولا أن الغراب والهدهد فزعا لرؤيتها تتلخخ، لما هدأتَ ولما ركبتَ السيارة في صمت تام، بعد أن نظرتَ طويلا إلى شجرة التين والدموع تنساب من عينيك، كأنك كنتَ تحسُّ بما كان يحدث حولك.

بعد أن انتهى الطبيب من كتابة تقريره وقام بختمه، أخذتَ تصرخ وتطالب بالعودة إلى البيت وشجرة التين. حسبي الله ونعم الوكيل في تلك الكلية وذلك التعنت، كأنهم كانوا

يريدون أن يتصيّدوا أي شيء لك، وينتظرون منك أي خطأ، حتى لو كان ذلك الخطأ أنت غير واع به لينصبوا لك المقاصل، وكأنك لم تعمل في تلك الكلية سنوات وسنوات. وآخر المَتمّة يأتي رئيسك في القسم ويقول إنك علماني والكلية طاهرة وستظلّ طاهرة، ويا أمّ المطّاهر رشّي الملح سبع مرّات!! همّ يُضحك وهمّ يُبكي. ورئيسك هذا لا يجرؤ الآن على أن يعلن عن ذلك صراحة، فلقد تحوّل كما هو دائماً. آآه! أين سيذهبون؟ سيأتي لهم أو عليهم يوم. لا تبتئس الآن، سأضطر لأن أتركك، لا أستطيع النزول الآن أيضاً، وها أنا أرسل لك هذا المقطع الصوتي مع صديقك حسن الذي سينزل للاطمئنان على أمه، وبالمرة يذهب إليك ليطمئن عليك ويسلمك الرسالة. نلتقي على خير يا حبيبي. شدّة وستزول، وسنجتمع عندك أو هنا نحن وأطفالنا بإذن الله.

آه صحيح، قبل أن أنتهي من التسجيل، إن شاء الله سنجتمع هنا، قلبي يقول لي إنك ستأتي إلينا قريباً، كما أن ذلك الحارس الغبي على بوابة البلدة كاد يفتادني إلى السجن عندما تجادلت معه وأنا أخرج من البوابة في المرة الماضية. قال إنه لاحظ دخولي وخروجي المتكرر في آخر سنة، وأني لا يحق لي أن أدخل البلدة أكثر من أربع مرات في السنة ما دام محل الإقامة في بطاقتي ليس جهينة، ضحكْتُ في سري من هذا التعسف، وضحكْتُ أيضاً لأنني دخلتُ جهينة في آخر سنتين عشر مرات، أربع مرات في السنة الماضية وست مرات في هذه السنة، ويبدو أن ضحكتي ظهرت على وجهي، فظن الحارس إنني أسخر منه، وقال:

- أنتِ تجاوزتِ المرات المسموح بها في الدخول. جهاز بصمة العين يقول إنك دخلت ست مرات، وسمح لك في المرة الخامسة لأنك كنت تصطحبين أطفالك، والأطفال لم يدخلوا هذه السنة إلا أربع مرات، ولذلك تم السماح لك في المرة الماضية.

سكتُ، ولم أقل له:

- يا غبي ما شأنِي أنا وجهازك؟ أنا الآن أخرج، وهذا الجهاز لم ينتبه لي أمس عندما دخلتُ.

[illegible]

## الفصل السابع

لم أكن أعرف، لولا كلام راوية في إحدى رسائلها الصوتية، أن البلدة بُني لها سورٌ يحيطُ بها من جميع الأنحاء كحصنٍ أو متراسٍ كأن هذه البلدة تحولّت إلى قلعةٍ. صار الطريق يُفضي إلى السور، وها هي بوابة ضخمة يقفُ عليها حارسٌ في منتصف العمر تقريباً يجلس على جانبها ويبدو أن ما أمامه شاشةٌ تحكّم بكاملٍ أزرارها.

وقفتُ مذهولاً أمام البوابة من الداخل، ففوقها مكتوب على شاشة تنير:

- اخرجوا منها بسلام ساخطين.

ربما كان ذهولي من الصدمة وربما كان من الدهشة الشعرية. أذكر أنني في كل البلدان التي نزلتُ بها عندما كان القطار وسيلة آمنة للمواصلات أو كان وسيلة آدمية أو كانت سكة القطار ذاتها لا يعترضها كل مترين معترضٌ، أجد لافتة عند محطة القطار تقول:

- ادخلوها بسلام آمنين

بالرغم من أن هذه اللافتة لا يستطيع أن يقرأها من يدخل هذه البلدة، وفي الغالب المحافظة، لأنها مكتوبة في الواجهة التي يدخل منها المسافرُ بابَ المحطة وكأن الدخول للمحطة للسفر بعيداً عن البلدة أو المحافظة هو المقصود، لتظلّ الواجهة تقول شيئاً لا يستطيع من تخاطبه الكلمات أن يقرأه أو يراه.

أحسستُ بالحيرة هنا أمام "اخرجوا منها بسلام ساخطين". وبالرغم من التساوي بين "ادخلوها" و"اخرجوا منها" على الأقل بالنسبة لموقعهما من الجملة، وأحسستُ أنهما متساويان، أو أنهما يدلان على نفس الشيء، أو أن الفرق بين الألفاظ يكاد يكون معدوماً – لكن الذي لفت نظري أكثر هو الجمع بين "السلام" و"السخط"، ربما أحسستُ بأنني الذي أتوهم أنني أقرأها هكذا، فأنا ساخط فعلاً، وأنا الذي فررتُ بجلدي كما يقولون إلى... لم أصل إلى البر بعد، ولكنني سأقول مجازاً إنني وصلتُ إلى برّ الأمان، أو على الأقل إلى برّ عدم الهجوم أو عدم المحاصرة، بالرغم من أن السور الذي أراه الآن، ولم أره أثناء دخولي، شاهدٌ على حصارٍ من نوع ما.

شدّنتني الأهراماتُ الرمزية المبنية فوق السور ورأسها مضيء بمصابيح تخبّئ العين:  
"أخرجوا منها بسلام ساخطين". متى بُني هذا السور؟ ومتى ارتديتُ أنا هذه الملابس أصلاً  
وأنا متأكد تماماً أنني تركتها في شقتي في الجيزة عندما جنّتُ هنا في عيد الأم؟ كان الجو  
ربيعاً وكنْتُ قد بدأتُ في ارتداء الملابس الصيفية، لكن هذه الملابس الشتوية التي أرتديها  
تدل على الزمن، على مرور الشهور، على سنة تكاد تكون كاملة مرّت. أذكرُ أنني... لا  
أذكر، فلقد نظرتُ منذ دقائق إلى هاتفي ولم أنتبه للتاريخ، فأنا جنّتُ في مارس، ربما كان  
الفرعُ أو التركيز على الخروج والنجاة هو الذي لم يجعلني أعير التاريخ اهتماماً، فلقد كان  
الشهر شهر ديسمبر، تسعة شهور على الأقل مرت، نعم!! سنة وتسعة أشهر!!! ها هو  
صوت زوجتي يؤكد لي ذلك، نعم، أنا متأكد الآن من أنها ذكرت لي هذه الفترة الطويلة،  
لكنني لم ألتفت لها، يبدو أنني اعتبرتها تمزج، كأنها تؤكد أنها مشتاقة لي وأنها تحسُّ بأنَّ  
فترة غيابي طالت كثيراً، خاصة وأنها كانت تضحك في ذلك المقطع الصوتي، وكأن ذكرها  
للفترة كان سخرية من الحارس.

وبدأتُ أدركُ الآن أنني تركتها منذ سنة وتسعة شهور إذا صدّقتُ الملابس الشتوية  
التي أرتديها وإذا صدّقتُ تاريخ الهاتف وإذا صدقتُ المقطع الصوتي لزوجتي وإذا صدقتُ  
لسعة البرد التي بدأتُ الآن عندما صفا تركيزي قليلاً أحسُّ بها تنهش في جسمي....

\*\*\*

ما أن اقتربتُ خارجاً حتى وجدتُ البوابة يتم إحكام غلقها ووجدتُ شيئاً أشبه بالأسياخ  
ينزل من أعلى السور بجانب البوابة من الداخل ويلامس الأرض بحيث لا يستطيع أحدُ  
الخروج حتى لو كانت البوابة مفتوحة. نهض من أمام الشاشة. رفع سلاحاً. شدَّ أجزاءه:

- من أنت؟ بطاقتك. ارفع يدك.

أستطيعُ أن أجيب على السؤال الأول بدون مشاكل. لكن كيف أجمع بين رفع يدي  
 وإخراج بطاقتي لأريها له؟ أخبرته باسمي: راوي زارع الصانع. رفعتُ يدي. وتجاهلتُ

السؤال عن بطاقتي. أخذ يضحك بهستيرية كأنني ألقيتُ نكتة لم يسمعها أحد من قبل. ثم أمسك نفسه فجأة عن الضحك وقال متجهماً وساخرًا:

- ما هذه الأسماء التي سميتموها؟

قلتُ في سرِّي: هل الأسماءُ تعلُّ؟ بالرغم من أنني أدرك أن أبي أسمانني بهذا الاسم عن قصد. ثم قلتُ له:

- هو اسمي الذي في البطاقة؟ هل أغيرُه؟

- وأنا قلتُ لك أين بطاقتك؟

أنزلتُ يدي لأخرجها من جيبِي، فأشهر السلاح في وجهي تمامًا وكرَّرَ:

- قلتُ لك من قبل: ارفع يدك.

رفعتُها وقلتُ له دون أن أظهرَ نبرة السخرية في كلامي:

- البطاقة لا تزال في جيبِي.

أخفضَ السلاح. وضع يده في جيبِي، والحمد لله أن البطاقة كانت في جيب القميص وأنني كنتُ أوزع نقودي ما بين القميص وجيبَي البنطال الخلفيين وجيبِيه الجانبيين. يبدو أنه لم ينظر إلى اسمي ونظر فقط إلى محلِّ إقامتي، فلقد سألني:

- ما الذي حاء بك إلى هنا وإقامتُك في مدينة بعيدة؟

- أنا من هنا. العنوان واجهةٌ قد لا تكشف شيئاً وقد تكشف نصف المعروض ولا تكشف عن النصف الآخر.

نظر إليَّ ببلاهة أو استغراب أو شكٍّ، ووجدته يشير إليَّ لأخذ بطاقتي ويفتح الباب لأجد نفسي وسط المقابر بالليل.

\*\*\*

ما أن خرجتُ من السور نظرتُ للوراء كأنني سأكسر قُلَّةً على البلدة بأكملها وكأنها هي التي تغادرني أو ترحل عني. رأيتُ الواجهة مكتوبا عليها:

- الحَجْرُ القروي، أدخلوها بسُعار طامعين.

لم تكن الواجهة الداخلية وهماً أو تخيلاً إذن، فهي مقصودة، كما أن الواجهة الخارجية مقصودة. ضحكة زوجتي ساخرة إذن، كنتُ أحسبها تسخر من الوضع في البيت في جهينة وكأنها تؤكد أن ذلك البيت صار سوراً، لكنني الآن أبصر الدليل على أن كلامها عن سور فعلي، وأن الحارس يقف ليسدَّ بجهاز التحكم الفتحة الوحيدة التي هي عبارة عن بوابة للخروج.

متى بُني هذا السور؟ متى صارت البلدة بأكملها حَجْراً؟ وما معنى ارتباط الحَجْر بالقرية؟ أذكرُ "كِريرة" في سبعينات القرن العشرين، وربما كانت قبل ذلك ولكنَّ الذاكرة دمجتُ الحكيَ بالمشاهدة. ولكن الكريرة تُبَيِّدُ الطيورَ، والطاعونُ قرأتُ عنه في الكتب فقط ورأيتُه في فيلم ليوسف شاهين... لكنَّ سهمًا أضاء في الواجهة أيضاً يتناوب الظهور مع "ادخلوها بسُعار طامعين" يقول:

- الحَجْرُ الحضري رقم 20 على بعد 50 كيلومترا.

دَقَّقْتُ النظر لأرى رقماً يظهر ويختفي بجانب عبارة "الحجر القروي" تجاوز المائة. صورٌ تتقلَّبُ في ذاكرتي بسرعة خاطفة، تُرجِعني، لا أريد أن أصدِّقها، تكاد تُرجع لي ذاكرتي بالكامل. سأُخَيِّلُ الآن أنني لا أذكرها. سأُخَيِّلُ أنها لم تحدث أصلاً. سأُخَيِّلُ فقط أن كل الذين أذكرهم شخصياتٌ كتبتُ عنها/عنهم من قبل. سأُخَيِّلُ أنني أنا أيضاً شخصية في قصة أو رواية كتبتُها من قبل. سأُخَيِّلُ أنني مجنونٌ أو شخصية من ورقٍ، فهل يُعقل، حفاظاً على الأقل على... مَنْ؟ أمام نفسي؟ أمام زوجتي؟ أمام أصدقائي؟ كلنا نعرف الصورة الحقيقية. لكن أي شخص لا يبرح الكتب أو الشاشات أو البرامج الحوارية التي لا تهدف إلا إلى جمع الإعلانات لتسقط بلداً بأكملها وتفرِّح الأحزاب والائتلافات والجماعات بنصرٍ وهميٍّ تحقِّقه على شاشة ستكسرُها الأفواه – هذا الشخص لن يستطيع أن يستوعب مدى تعقُّد الأشياء، مدى عمق النفس البشرية، مدى الصراعات المعقولة واللامعقولة، فمسرح العبث في حد ذاته شديدٌ واقعية في هذا السياق. إذا قلتُ لأحد:

- سأحكي لك قصة حقيقية

وأسرد له جزءا مما تعرضه عليّ الصور في رأسي وترجعه لي ذاكرتي كاملا  
مُكَمَّلًا، سيقول لي:

- هل "تسرح" بي؟ هل تدهن لي الهواء "دوكو"؟ هل تريد أن تذهب بي إلى البحر  
وثرجيني عطشانًا؟

سيعتقد أنني موهوم وأتكلم عن مشاكل لا وجود لها وعن وطنٍ غريب سينهار ولا  
يمكن أن يطال انهياره وطنٌ ذلك السامع أو المشاهد أو حتى القارئ المُتَوَهِّم، كأن رؤوس  
الأهرامات التي تلمع فوق السور حقيقة. سأتخيّل أنني مجنون أو سأرسم أنني مجنون لأوهم  
ذلك القارئ بأن كل ما أتكلم عنه عبارة عن شخصيات من قصص وروايات كتبتها من قبل.

أذكر رائحة المقابر من قلعة صلاح الدين بالرغم من أنني أذكر الآن أنني خلطتُ منذ  
ساعات بينها وبين قلعة محمد علي، وكيف أنها – بالرغم من ثقلها لدرجة أنني أحس بأنها  
رائحة مكونة من طبقات – تمنحي الإحساس بالانتعاش وبامتلاء رئتي بالتاريخ على أنغام  
الموسيقى بمهرجان القلعة. أذكر مقابرٍ مررتُ بها، ربما كنا نسير أنا وأصدقائي من الجيزة  
عبر طريق صلاح سالم لنتجه بالقرب من نادي ربما كان اسمه "الأبطال" يسارا ونسير  
وسط مقابر تمتلئ بأناس يرقدون فيها انتظارا لحياتهم الدائمة وأناس ينامون فيها انتظارا لبدء  
حياتهم المؤقتة. كنتُ أظن أن انتظارهم لن يطول، لكنه طال كلّ هذه السنوات، بالرغم من  
أنني لديّ إحساس بأنه سينفجر عما قريب. كنا نسير لنصل إلى مسجد السيدة نفيسة من  
الخلف لنصلي ركعتين، أو نصل إلى مبنى تاريخي أو نسير مع الشوارع إلى أن نصل إلى  
قلعة صلاح الدين.

\*\*\*

نظرتُ للوراء. بعد أن قرأت الحَجَرَ القروي رقم كذا... كانت هناك لوحات تتبدل  
ألوانها كتلك اللوحات الضوئية التي تُستخدم في الترحيب خارج القرى أو المدن أو  
المحافظات أو أي شيء من هذا القبيل. كانت مكتوبة عليها آية "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ". لم تكن

الرائحة، التي كانت تثقل على صدري ورئتي ودمي، تخيلاً أو إحساساً نفسياً أو انعكاساً للإحساس بالضيق أو القرف أو الاستنكار لما يحدث. والأغرب من ذلك أن تجدها في مدخل مكان يُفترض أنه مخصص لحياة، أنه دار عمل، دار إعمار، دار استخلاف، دار صناعة، دار حماية أنفس، دار يحمل كل معاني الإيجابية والبناء والنماء والنهضة... لا، لا، النهضة كلمة لا تعطيني إحساساً بالاسم أساساً، كأن الشعب يريد الإبادة، متى كانت الإبادة إرادة شعب؟!!

وها هي مئات الوجوه التي رأيته منذ ساعات أو ربما منذ زمن داخل ذلك السور تدل على أن الإبادة مستمرة، على أن الحوادث كما هي، الإهمال كما هو، التسبب كما هو، كما أن مجرد دخول هؤلاء الآباء والأمهات بأطفالهم المُغتالين نحو ما يُفترض أنه عَمَارٌ لدفن أبنائهم، هل أوحى لهم بذلك، أوحى لهم بأن القلوب الطاهرة يمكنها أن تستوطن أرضاً لا تفرز إلا رائحة الموت؟ سأدعي أنني ما زلتُ مجنوناً وأنني لم أسمع كلام ذلك الذي كان يريد أن يفجّرني بهاتف ابني وهاتف زوجتي، ولم أدرك أن مشهد تشييع جنازة الأطفال كان مجرد تمثيلية. سأقول إن هذه أو تلك الرائحة رائحة تُبعد حتى زائري الموتى وتصرفهم عن الزيارة، عن التفكير في الزيارة بالمرّة. "كل من عليها فان". أدركتُ لها ظهري، فأنا إنسان فانٍ بطبعي، لكنني أفنى عندما يحين أجلي، ولا أسمح لأحد أن يُفنيني عامداً متعمداً أو مشتركاً بالتواطؤ أو السكوت أو عدم الصيانة، أو بالإهمال أو عدم التجديد والمراقبة والمحاسبة....

\*\*\*

~~~~~. المقابر خارج السور تمنحني هواء مُنعشاً لا أحس لرائحته ثِقَلًا ولا عَطَنًا، كما أن القبور المنفردة تمنحني إحساساً بالحميمية والفردية، فها هو قبر أبي، ها هو قبر جدي، ها هو قبر عمي. نعم!!!!!! وقبر أمي!!!!!! إذن هي ماتت. هل كنتُ مغيباً أو غائباً إلى هذا الحد؟ هل فقدتُ إحساسي بالزمن لدرجة أن الوجوه كانت تتراءى أمام عيني ضباباً لا يكشف عنها لرأسي، لذاكرتي، لتعرفني؟

وها أنتِ يا راويةِ تقولين إن أمي كانت تترقد كمدا فوق الدَّكَّة! أي دَكَّة؟ هل كنتِ تقولين على خشبة النَّعشِ دَكَّة؟ هل كنتِ تقصدين بالرقود كَمَدًا موت أمي؟ هل أمي هي ذاكرتي؟ أم أن الضربات عندما تأتي وراء بعضها البعض تعيد الذاكرة وتعيد الإحساس بوطأة الفقد؟

لماذا يصرّ هذا الهواء على إنعاشي، إنعاش الصور في رأسي، إنعاش الوجوه لتدبّ فيها الحياة، إنعاش الإحساس بالموت والحياة معاً؟ أم أن الإنعاش ولادة جديدة، خاصة وأنه يأتي بعد ذلك العطن داخل السور، بعد كل تلك المناظر السوداوية والعبثية معاً؟ الموت هنا حياة بشكل أو بآخر، حتى لو كان حياة مؤجلة إلى وقت معلوم. أما الموت هناك فهو دماء وأرواح زاهقة وأرواح تخنق نفسها وأرواح ترفض الاعتراف بموتها، وكأن الحياة طعام يمكن للمرء أن يستغني عنه بإرادته.

لماذا أحسُّ بأن هؤلاء الموتى في قبورهم طيبون جداً؟ على الأقل كلُّ منهم خطأ خطواته، وعندما شعر بأنَّ طريقاً أخرى تناديه لبيّ النداء راضياً، وربما كان مَرَضِيّاً أيضاً. وداخل السور شاهدتُ الموت المحتمل بعيني، فلقد كان كوب الزجاج الذي كسره دليلاً أو استباقاً لِفَتْكَ وشيكٍ، وكان الغراب شاهداً. هل كان يستعد لدفني أم أنه كان يُنذرنِي، ينصحني، يهمس لي بالهروب، بالنجاة، بالفرار بحياة لم تكتمل بعد؟

أذكر أنني مررتُ بالمقابر بالليل مرة واحدة، لا أذكر التفاصيل، لكنني كنتُ قد جنْتُ في زيارة خاطفة ومررتُ لأقرأ الفاتحة على روح أبي، ومن المؤكد أن أمي كان حسُّها في الدنيا نابضاً ساعتها. لكنَّ كلَّ المناظر أو كلَّ الحكايات التي تُروى عن المقابر ليلاً تم إخراجها في نفس الوقت أمام عيني أو على شاشة ذاكرتي. ومع ذلك لم أشعر بالخوف كأن الخوف الذي انتابني أثناء فراري بالحياة استحوذ على كل الخلايا في جسدي ولم يترك مساحة لخوفٍ جديدٍ، أو ربما أدركتُ أن الخوف لا فائدة منه، فما ضاع لن يُقابله شيء أهمُّ منه، على الأقل أنا آنسُ الآن وسط المقابر بأرواح أعرفها وتعرفني، أرواح لم تتحلَّق بالدَّكَّة حولي، لم تكسرْ كوبَ شاي، لم تستنفذْ رشفات شاي لي، لم تخطِّطْ بالفحم أقساماً على

جسمي، لم تتذكر أشياء قدّمْتُها كأنها تتباهى بامتلاكي وتقسمي وإزهاق روحي وبصماتي وتاريخي.

لا أعرف الطريق إلى مقابرنا من وسط الجبّانة، وكان عليّ أن أسير حول المقابر لأصلّ إلى نهاية حدها بجانب الطريق، ثم أتجه يمينا إلى أن أصل إلى العمود الكهربائي الثالث وبعدها أعطيه ظهري لأسير خمسين خطوة تقريبا وأجد نفسي فوق السور الواطئ الذي يحدُّ مقابرنا. لم أحس بأن الدم يضطرب داخلي. في كل مرة كنتُ أزور أبي، كنتُ أشعر بهدوء غريب، صمت تام، ربما رهبةً من المكان أو احتراما له، أو حفاظا على عدم خدش حرمة الأموات وسكونهم أو بالأحرى سكينتهم، ولا أنطق إلا بالاستغفار وقراءة الفاتحة لأبي ولأموات الجميع والدعاء لهم فردّا فردّا. إن كنتُ أحضرتُ معي ماءً، أروي به نباتات الصبّار. لكنني الآن بلا ماء وبلا سَكينةٍ وبلا صمتٍ.

أذكر الآن أنني تشاجرتُ مع أخي بالبيت الموجود في مكان ما داخل ذلك السور عندما ضرب أمي، وربما رجعتُ، أذكر الآن أن مجيئي تزامنَ مع ضربها ومع عيد الأم. لا أذكر شيئا بعد ذلك، لكن يبدو أنني أصبْتُ في المشاجرة، أو فقدتُ الوعي والذاكرة، وربما قُتِلْتُ أمي أو ماتتُ كمدا أثناء ذلك. فهذا هو تاريخ وفاتها: مارس 2013، 31 مارس 2013، يعني أنها ماتت بعد عشرة أيام على الأكثر من المشاجرة. هل ضربها أخي مرة أخرى وماتت متأثرة بجراحها؟ أم أنها ماتت متأثرة بكملها وحزنها وعدم تعقّلها للنهاية العيشية لهذا السبب؟ وأنا الذي استغربتُ من أنهم كانوا يحيطون بالدّكّة من حولي! أبي وأمّي! الرابط الأساسي لي الآن بالقرية. أو ربما قُطِعَ الرابط الأساسي.

الحمد لله على أن المقابر خارج السور، فيمكنني أن أجيء إليهما كلما جئتُ لزيارة أخويّ في المحافظة أو لزيارة أختي في المحافظة الأخرى. أذكر أنني أنا وأصدقائي كنا نفكر جدّيا في أن نشترى مقبرةً واحدة لنا جميعا على حواف الجيزة، في مدينة 6 أكتوبر مثلا، لنعلن بها من جهة السقوط الفعلي لمفهوم العائلة والعشيرة، ونرسّخ بها مفهوم الصداقة الذي لا يعتدي على خصوصية ولا يطمع في دمك. لكن النقود ساعته لم تكن متوفرة، فأجلنا

الفكرة إلى موعد قادم لا أعرف إن كان قد حانَ ودفع أحدهم المال نيابة عني في الشهور أو السنوات الفاصلة بين عيد الأم وبين شهر ديسمبر الآن...

- يا أستاذ. يا أستاذ.

سرتُ قشعريرةً في جسمي بالرغم من أنني كنتُ قد بدأتُ في الإحساس بالتجرُّد، بالنظر إلى كل مخاوف العالم نظرة حيادية أو نظرة تبتعد للوراء قليلاً. مَنْ ذلك الذي يناديني في هذه الجبَّانة المترامية التي يخشى أي أحد أن يدخلها بالليل؟ نظرتُ فإذ برأسٍ ويدٍ. نظرتُ مستغرباً، يمتزج في عينيَّ الخوف والذهول.

- ألا تعرفني يا أستاذ؟

- أعرف من؟

- أنسيّت بسرعة جلسّتنا والسيجارة التي أخذتها منك؟

- جلسة... وسيجارة!

- أنا الذي كنتُ معك على التربة. أنت الذي أخرجتني من محبسي ما بين التربة والأسفلت. أنت الذي فككتَ قيدي بأن جلست معي ولم تخف. أتجيء الآن لتخاف وتستغرب منظري؟!

- لا أستغرب. لكنني ظننتُك رحلتَ من ساعتها إلى باقي جسمك وخرجت منها سالمًا متوحِّدًا إلى بارئك.

- المشكلة هنا يا أستاذ.

- كيف؟

- أبحث عن جثتي ولا أصل إليها.

- كانت مشكلة روحك مع الدم. هل صارت مشكلتك الآن مع الجسد؟ مع الجثة؟

- ماذا أقول؟ يبدو أنني تأخرتُ عليها طويلاً. عشرون عاما وربما خمسة وعشرون. فالمرء عندما ينحصر عداد زمنه في الخطوات التي تدب على طريق، عندما تنحصر رؤيته من رأس يكاد نصفها يكون تحت الأسفلت، عندما تنحصر ملامسُها للعالم في يد تبرز ما بين التربة والأسفلت كفضاعة أو نبات صبار لا يقربهما أحد، تختلط عليه الأيام والشهور والسنوات.

- وهل بحثت في كل المقابر؟

- فتشّنتُ مقبرة عائلتنا قبراً قبرا. فتشّنتُ ما بين القبور فربما تأكلت معالم القبور على مر الزمن. قلتُ: ربما ضاقت المقبرة فانتقلوا إلى مقبرة أخرى. لم أجد لنا اسما آخر. ولم تكن مقبرتنا قد امتلأت.

- لا أعرف كيف أساعدك يا والدي، ولا أعرف إن كانت الروح تصعد من الجسد على أي وضع أم لا بد أن يكون الدم ما زال في الجسد كي تغادره الروح. لكن عندما يتصفى الدم قطرة قطرة، هل تخرج الروح وتلتصق بالدم أم أنها تخرج من الجسد عند الأظافر أو مع الأنفاس؟ وما دامت روحك ظلّت قرينة الدم الذي تشربّه تراب الطريق وانصبّ على نفسه الأسفلت، ربما لن تستطيع التعرف على جثتك إلا بأن تعيد ضخ الدم المشرّد ما بين الأسفلت والتربة في عروقها. وكيف تصل إليها؟ كيف تجمع الدم؟ لست أدري يا والدي، لست أدري.

- هل سأظل كذا مشرّداً ما بين قبر وآخر؟ إن كان كلامك صحيحاً، فعليّ أن أحس بالدم، بالنبض. وكيف لي؟ لا يمكنني أن أنزع رأس أحد وألصق رأسي مكانه. فعندما أنزعها سينفر الدم، سيختلط بالتربة، بالرمال، وتظل روحه سرمدية التفنيت وأنا لا أقبل أن أريح روحي على حساب روح شريفة. هل أتقرب بقربان لله؟ فالقربان على الأقل منذور له. هل ألصق رأسي بسرعة في رأس جدّي أو حتى ذئب؟ ومن أين لي بهذا أو ذاك؟ وكيف لي أن أضمن أن تتصالح روحي مع دم قُرباني؟ كيف أضمن ألا تتصارع رأسي مع جسم الخروف أو الجدي أو الذئب، وأظل في صراع أبدي أتقلّ

ما بيني وبين الحيوان الذي انتقلتُ إليه، كنتُ قُلي الآن بين قبر وقبر لأظل روحًا ضائعة وجسدًا ضائعًا وكان المشرحة ينقصها قتلى؟!

أحسستُ بالرغبة في الكلام، كأني سأفرِّغ رواية كاملة من رأسي في جهاز التسجيل بهاتفي، كأني سأضحُّ عدة روايات في قلبي، كأني سألتقي بي وابتعد عني في نفس الوقت، كأني سأكون هناك وأكون هنا، كأني سأكون الغراب وأكون الهدهد، لا، فليس الهدهد والغراب متناقضين أو يمثلان طرفين أو حدين أو اتجاهين متقابلين، الهدهد هو ذلك الذي قرأ النبوءة، لكن شيئًا ما/ أحدًا ما حاول أن يطمسها من رأسه، ومنذ ذلك الحين أخذ الهدهد ينقر في الأرض ليبحث عنها، لا أريد أن أقول بلا جدوي، فالبحت سيوصله يومًا ما إلى ما يريد، سيوصلني يومًا ما إلى ما أريد، إلى ما أحسُّ به، إلى ما أشتهي، إلى ما يجمعنا سويًا. والغرابُ رأى نبوءة الملائكة، رأى الدم يُسفك، رأى الفساد في الأرض، ولكنه حدسَ قدرًا مما لا تعلمه الملائكة، فاتخذ المحبة والحياة والإنذار والقصاص وتكريم الموتى طريقًا له، وها أنا أدِين له بحمايته لي وتنبيهي للطريق، كما حماني وأطعمني وأرشدني للطريق من قبل في "طقوس العبور"، وكنتُ أظنُّ أنَّ طريقَ "طقوس العبور" هي مفتاح الطرق، ولكنني الآن أكتشف أنها أوصلت إلى طريق ربما كان حتميًا، ولكنه طريق يضغط على الذاكرة، يضغط على الصبح الذي يتنفس، يضغط على "ورد الجنائين"، يضغط على بصيرة كانت تحلم بالحياة. فقفزتُ من أعلى السور، تاركًا الغراب والهدهد يكملان نبوءتيهما، يسعيان للوصول إلى مفتاح الطريق الذي يصب في قلبي وقلب كلِّ من/ما له قلب، سواء أكان يرعى ذلك القلب المتفكّر أم يطمس تفكّره ويتركه مرتعًا للسفك والزهق والافتراس.

وفي الوقت ذاته، احترتُ في موضع البداية، فلا أستطيع أن أتخيّر نقطة واحدة أبدأ منها، ربما لأنني لا أستطيع أن أستوعب ما أودُّ أن أقوله أو ينتظم بعد في رؤية كلية، في رؤية متسقة منتظمة. كل ما أدركه الآن أنني واقف على حدودٍ، بالرغم من أن البوابة والسور يبتعدان نصف كيلومتر على الأقل، لكنني وجدتُ نفسي أنهض من جلستي أمام قبر أبي وأقف، لا أدري لماذا، لكنني شعرتُ بالرغبة في الوقوف كأني أتوقّع أن يخرج أبي

ليحتضنني، وفي الوقت ذاته كنت أدرك عبثَ توقُّعي. كنت أحس بأنه يسمعني حسبما أعتقد أو حسبما تتداوله الحكايات عن الموتى الذين يشعرون بمن يزورهم أو يدعو لهم، وقد يأتون إليه في المنام للاطمئنان أو التشجيع أو المساندة أو التواصل.

لا أدري لماذا أحسُّ بأن رأسي بدأت تثقل كأنني سأقع بعد لحظة، فأجلس ثم أمدد جسمي وأضع رأسي على قبر أبي. ليس دَوَّارًا، فلا أنا وسط بحرٍ ولا أنا مُرهَقٌ إلى هذا الحد مع أنني لم أنم منذ ساعات طويلة، ولا أعاني من ضغط دم منخفض. فقط أحسُّ بأن رأسي تروح وتجيء هرولة وعدوًا، وأن قلبي كأنه ينبض نبضةً فَرِحَةً أو نبضةً مستقبلةً لمفاجأةٍ لا أعرفها ولا يعرفها قلبي.

تروح رأسي وتجيء، كأنها تقطع المسافة بين هنا وهناك دون أن تتوقف. ما هنا؟ وما هناك؟ هل هنا كل ذلك الذي يلتقي في رأسي وقلبي الآن ويفور ويهدر منذ أن قفرتُ من أعلى السور؟ أم أنه ذلك الذي يمتد منذ سنوات ويحضر أيضا بصورة ضبابية كأنه واقع في غيبش لا يظهر منه بشكل واضح؟ أم أنه ما يجمع بين هذا وذاك؟ وهل يمكن أن توجد "هناك" مستقلة في ذاكرتي بعيدا عني؟ أم أن ذاكرتي ذاتها هي أرضٌ بكل أبعادها وزواياها مهما توافرت هذه الزوايا والأبعاد، فمهما ابتعدت تلتقي كلها في نقطة واحدة تمثل القلب، أيًا كان الدم الذي يصب فيه، وأيًا كان الدم الذي يطرده هذا القلب؟

كيف يمكنني أن أقطع حبلا واصلا بين مكانين، مكان طُرِدْتُ منه منذ ساعات قلَّت أو كَثُرَتْ، سواء أكان طردًا حقيقيًا أم مجازيًا، ومكان أرى عمليًا أنني سأذهب إليه بعد أن أودّع أبي حيث زوجتي وأطفالي؟! وهل أنا الذي أقطع الحبل الواصل؟!!

لم أطرِد نفسي، لم أخرج طواعية. من يقطع الأحبال والأرحام وقنوات الدم الممتدة بين قلب ونبض شجرة؟! هل يمكن لأي مكان آخر – إذا تمكَّنتُ مع أخوي المغتربين في المدن أن نشتره – هل يمكنه أن يمدَّ الشرايين بين أشجاره وقلوبنا؟ هل يمكنه أن يتسلل خفية إلى بلدتنا لينقل بصماتنا، أنفاسنا، ذكرياتنا، تاريخنا، منها إليه؟ كيف يكون إحساسي بمكانٍ جديد؟ كيف سأؤهِم نفسي بأن المكان الجديد يمتد في عروقي منذ أربعين سنة وأكثر؟ كيف

أَفْنَعُ المَكَانَ الجَدِيدَ بأنني نفسُ صاحبه القديم؟ كيف أو همه بأن يتخلَّص من بصمات صاحبه الأول ويزرع بصماتي مكانها؟ كيف وكيف وكيف؟

أَفْتَحْ عيني. أنظر للسماء، وأجد لديَّ رغبة مُلْحَّةً في أن أعدَّ النجوم، فأبدأ في العدِّ، وفي الوقت ذاته أحاول أن أفكِّرَ في فعلٍ أي شيءٍ أو التخطيط لخطوتي القادمة. وبالرغم من أنني أعرف أنني ينبغي عليَّ عملياً أن أقرأ الفاتحة لجميع الأموات من العائلة التي لم أعد أحسُّ الآن بوجودها أو على الأقل لم يعد لها مكانٌ أشيرُ إليه وأقول:

- هذا مكاني.

لكن هؤلاء الموتى ينتمون لزمان كان ملتصقاً بمكاني، أو ربما كانوا، ومنهم من كان متغرباً في البلدان مثلي، لكنه كان يعود كلَّ حينٍ وحينٍ إلى مكانٍ يجمع الجميع.

أحسُّ بأنني لن أعود، أو على الأقل لن يسمح لي أحد بالعودة، أو لن يقبلني. أفكِّرُ عملياً أن أختتم أربعين عاماً من عمري، أو تزيد قليلاً، وأبدأ في العدِّ من جديد كأن الزمان عملية حسابية على آلة حاسبة يمكنك أن تنتهي العملية في أي وقت تشاء بالضغط على زرِّ العودة إلى الصفر والبدء من جديد، مع أنني أدرك تماماً أن هذا مستحيل وأنني بعد خمس دقائق على الأكثر من الآن سأتذكَّرُ المكان، سأتذكر سنواتي المهدورة، سأزرف دمعة وأحسُّ بأنني مخنوق كأن شيئاً يربط حبلًا حول روحي ليتقل على قلبي ثقلاً لا أعرف له سبباً واضحاً لكثرة الأسباب وتشابكها، سأشتاق إلى أن أرجع بخطواتي للأمام نقرات الهدد جنوب البيت، لأشكر الغراب الذي تركته هناك يعود إلى الشجرة بمجرد انتهائه من تنبيهي وحمائتي، لأصوِّر شجرة التين لأحتفظ بها كي أستطيع أن أستحضرها إذا ما عاندتني ذاكرتي، إذا ما تعرضتُ لخبطة أخرى في أي مكان من هذه الأرض الممتدة، الأرض العنيدة والمعاندة والطبيعة في نفس الوقت، الأرض التي تتداخل أصواتها لتتشوش على الذاكرة وتنعش الذاكرة في الوقت ذاته، الأرض التي تقول لي: "أنتَ مني"، وفي نفس الوقت تُنكرني وتمثِّل بي وبأصواتي وبذاكرتي، كأنني ابن "الأرض السوداء"، وبعض الآخرين أبناء "الأرض البيضاء"، ما بين البياض والسواد تضيع أرواح، تتوه أرواح، تُزهق أرواح،

تَزْهَقُ أرواح، تهاجر أرواح، تنكفئ أرواح، ويظل الغراب حارساً أبدياً ينذرنا ويحذرنا ويلفت انتباهنا إلى أننا ابتعدنا عن الطريق كثيراً...

عليّ الآن أن أنام هنا، فلا طاقتي تسمح لي بالعودة إلى موقف السيارات لأخرج من جهينة، ولا السيارات نفسها موجودة الآن في الموقف، فتتوقف الحياة عند الساعة العاشرة مساءً تقريباً. أستريح قليلاً، وفي الصباح أتمنى أن يكون حارس البوابة الذي قابلته قد انصرف ليحل محله حارس جديد، فلن يكون هناك كرسيّ فارغ في أي سيارة أجرة خارجة من جهينة، والموقف ذاته داخل السور. وسأدخل كأني قادم للتو من السفر. سأجلس على أحد المقاهي لأتناول إفطاري وأشرب الشاي والشيشة وأنا أتأمل كل الوجوه العابرة للشارع أمام المقهى الموجود في موقف السيّارات. سأستنشق الهواء بعمقٍ وألقي نفسي في السيّارة التي عليها الدور لأذهب إلى سوهاج أو طهطا حتى أركب سيارة أو أتوبيس إلى الجيزة. وربما أفكر في زيارة أخويّ في سوهاج في مرة قادمة، فلا يمكنني أن أتأخر على زوجتي وأولادي لأكثر من هذا. عليّ قبل أن أنام أن أتصلَ بزوجتي لأطمئنّها وأسمع صوتها وأصوات أولادنا.

- ألو

أسمع صوت زغرودة راوية، وتختلط الزغرودة بالبكاء، وتقول:

- أخيراً يا راوي، أخيراً سنلتقي في بيتنا.

أقول لها بلهفة وحسرة:

- لا أعرف كيف حدث كل هذا. كابوس وانزاح بإذن الله. اللقاء أكيد غدا إن شاء الله.

أحبُّكِ. أحبُّكم جميعاً. هاتي الأولاد لأسمع صوتهم.

تتادي الأولاد وتتواصل زغرودتها، فأحسُّ بالالتئام وانسراح صدري...

27 مارس 2010 – 24 يوليو 2018